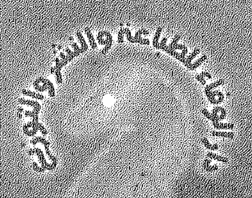
الفتوة في المفهوم الإسلامي

دراسة في الأخلاق الإسلامية

دكتور/ عبد العزيز محمد



ت / فاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ (٠٣) - اسكندرية





الفتوة في المفهوم الإسلامي

دراسة فى الأخلاق الإسلامية

د. عبد العزيز محمد

الفتوة فى المفهوم الإسلامى

"دراسة فى الأخلاق الإسلامية"

كمبيوتر : دار الوفـــاء (علا علاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر

العنوان : ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣

ص.ب. ٢١٤١١ فيكتوريا ـــ اسكندرية

رقم الإيــــداع : ١٣٤٤٧/١٩٩٨

الترقيم الدولى :6- 19 - 5904 - 977

الفتــوة فى المفهــوم الإســلامى

دراسة فى الأخلاق الإسلامية

دكتور / عبد العزيز محمد

الناشـــــر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ ــ الإسكندرية



المقدمة

الفتوة فى اللغة من الفتاء وهو الشباب، والفتى فى الأصل الشاب وقد يراد به الكامل من الشباب، فالفتوة هى القوة لأن الشباب مصدرها عادة.

ويذكر صاحب التعريفات أن الفتوة فى اللغة : السخاء والكرم، وفى إصطلاح أهل الحقيقة : هى أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة.

وهنا نجد معنى آخر للفتوة يقترب كثيراً من المعنى المعنوى إذ أن الفتوة فى هذا التعريف لا تقتصر على الشباب والقوة فقط وإنما تعدت ذلك إلى معانى أخرى أسمى وأعلى، كالسخاء والكرم، حتى وصلت إلى حد الإيثار عند الصوفية.

إلا أن المفهوم الشائع للفتوة أخذ معانى المشاغبة والغلبة والشقاوة.. واضمحلت معانى الفتوة التى تدل على النبل والسماحة والسخاء والكرم وإيواء الضيف، وكظم الغيظ ومساعدة الضعيف، والعفو عند المقدرة، والإيثار....

ومن خلال الصفحات القادمة نحاول أن نوضح السمات الأخلاقية والمعنوية للفتوة فى المفهوم الإسلامى غير غافلين عن السمات المادية، ولكن بداية كان علينا أن نجيب فى الفصل الأول عن السؤال التالى : هل عرف المجتمع الجاهلى قبل الإسلام نظام الفتوة؟

وهنا لابد أن نقرر أن كثيراً من مزايا العرب قبل الإسلام قد دخلت ضمن سمات الفتوة ــ ولكن مع إختلاف الغاية ــ ومن جهة

أخرى وجدت بعض السمات الغير محمودة والتى نهى عنـــها الإســـلام وحرمها مثل شرب الخمر، والجلوس فى الحانات، وحضور مجـــالس اللهو والمجون.....

وفى الفصل الثانى نعرض لمفهوم الفتوة فى الإســـلام، وفـــى البداية نعرض لمعانى الفتوة كما وردت فى كتاب الله عـــز وجـــل، إذ وجدنا أن لفظ "فتى" قد ذكر فى القرآن الكريم فى أكثر مـــن موضـــع وبأكثر من معنى، كما أتى وصفاً لبعض الأنبياء.

أما عن سمات الفتوة كما أوضحها الإسلام فوجدنا أنها مجموعة من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، التى تكون فى مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها، والتى عـــبرت عنـــها الشريعـــة الغراء "بمكارم الأخلاق".

وقد تجسدت هذه الأخلاق الكريمة فى شخصية سيد الفتيان على مر العصور والأزمان، رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى كان له أكبر الأثر على الصحابة لأنه القدوة والأسوة الحسنة، ولهذا أردنـــا أن نعرض فى الفصل الثالث لنماذج من فتيان المسلمين أصحاب رســـول الله صلى الله عليه وسام، فوجدنا أن هؤلاء الصحابة نماذج فـــذة فـــى مكارم الأخلاق.

وإذا كان الصوفية قد استحسنوا كلمة الفتوة، وماتدل عليه مـــن معانى النبل والسماحة، وما تسعى إليه من التحلى بمكـــارم الأخـــلاق، لذلك شاع استخدامها بينهم وأدخلت ضمن مصطلحاتهم.

ولما كان من الصعب تتبع وحصر سمات الفتوة عند الصوفية ــ بصورة عامة ــ فقد اقتصرنا البحث فى الفصل الرابع على بعض مـــن

مدارس الصوفية وهى البصرة ، والكوفة، والشام، وخراسان،. ومن خلال البحث استطعنا الإجابة على بعض التساؤلات ومنها :

ـ ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ فتوتها؟

ـ ما هى سمات الفتوة التى تتحلى بها الصوفية؟

ـ ما هى الغاية التى تهدف إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

واستكمالاً لعناصر البحث كان لابد أن نعرض للصلة بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية، لكى نتعرف إلى أى مدى تأثرت هذه الفروسية بسمات وخصال الفتوة.

وبمناقشة هذا الموضوع فى الفصل الخامس وجدنا أن الفروسية الغربية لم تستطع أن تتحلى بما عرف من خصال حميدة يتحلى بها فتيان المسلمين، يشهد بذلك إحتكاكهم بالعرب فى المعاملات عن طريق الأندلس، وميادين القتال خلال الحروب الصليبية.

وعلى الله قصد السبيل

د. عبد العزيز محمد



الفصل الأول
مفهوم الفتوة قبل الاسلام

مفهوم الفتوة قبل الاسلام

بعد أن تعرفنا على معنى الفتوة فى اللغة، واستعرضنا الفـــرق بينها وبين المروءة،يجدر بنا أن نعرض لمفهوم الفتوة عند العرب قبـــل الاسلام.

وهنا نجد إن الكلمة خاضعة للقبائل المختلفة، فتلبسها كل قبيلة ما تراه المثل الأعلى للفتى، فطرفة بن العبد ـ مثلا ـ يرسم لنا صـــورة للفتى كما يتصورها هو وقبيلته فيقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني

دعيت فلم اكسل ولم أتبـــــــلد

وهذا القول لطرفة يذكرنا بقول بشامة بن حزن النهشلى:

لو كان فى الألف واحد فدعوا

من فارس؟ خالهم إياه يعنـــونا

فهم يدعون الفارس فى الملمات والشدائد، كما يدون الفتى، فكأن الفتـــى هو الفارس الشجاع، وإن كان الفتى أعم معنى، ويتضح ذلك من حديث طرفه عن نفسه فى وصف الفتى وعدد سجاياه فى قوله:

ولست بحلال التلاع مخافـــة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فهو كريم يرفد كل من طلب رفده، وهو واسع الرحـــب قـــرى الضيف كما هو واسع النجدة فى قتال الأعداء.

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني

وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وهنا نجد طرفة يصف الفتى بأنه جاد هازل، أى أنه من ذوى الرأي والمشورة يدلى برأيه بين عظماء القوم عندما يجد الجد. كما أنه يطلب اللذة والاستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيت،ليسقى فيره كرما(١).

فالفتوة هنا فى نظر طرفه ــ وامثاله ــ شجاعة وكرم وهذه الصفات وإن كانت محمودة. فقد اقترنت بصفات أخرى غير محمودة كاللهو واللذة والإستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيت، معتقداً أن الحياة هى هذه الحياة ولاشئ وراءها. فليلتذ ما أمكن، وليس هذا من الإسلام فى شئ.

كذلك كان من دواعي فخر العرب فى الجاهلية أن يكون الفتى كريما وكثيرا مالا مهم نساؤهم على إسرافهم فى الكرم، وبيتهم فى حاجة الى ما يبذلونه للضيوف ولقد أفصح هؤلاء الأسخياء عن الغاية من وراء هذا الكرم بأن هلاك المال فى سبيل الضيف ــ وإن هلك العيال ــ مفخرة تخلد الأسان . أما البخل والشح فعار أى عار، وليس المال بمخلد صاحبه إذا هو شح به :

ألا بكرت مي على تلومني

تقول: ألا أهلكت من أنت عائله

ذريني فان البخل لا يخلد الفتى

ولا يهلك المعروف من هو فاعله (٢)

وإذا ما انتقلنا الى مفهوم أخر من مفاهيم الفتوة عند العرب قبل الاسلام لوجدنا أن العرب قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة، ولا قوانين مرسومة،ولا قوة منفـــذة ولا محاكم للفصل بين المنازعـــات. ولذلـــك كانت كلمة الشرف. والوعد الصادق هى القانون الـــذى يقدســـه كـــل عربي ويحرص على احترامه والخضوع له، حرصا علـــى مصلحتـــه الخاصة، وعلى العدالة العامة فى المجتمع،وفى ذلك يقـــول هـــيرودت: ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب(٣).

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه الى ذروة الوفاء. وفى هذا الصدد يقول السموأل ـــ الذى يضرب به المثل فى الوفاء :

وفيت بأدرع الكنـــــدي آني

اذا ما ذم أقوام وفيـــــت(٤)

ومن مفاهيم الفتوة قبل الاسلام نجد الصدق وحفظ السر، ويتضح ذلك فى قول مسكين ألد ارمى

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم

على سر بعض غير أنى جماعهـــــــا

لكل أمري شعب من القلب فارغ

وموضع نجوى لا يرام إطلاعـــــــها

يظلون شتى فى البلاد وســـــرهم

الى صخرة أعياد الرجال إنصداعهـــا(٥)

مما سبق نجد أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف باختلاف نظر الأشخـــاص, فبعضهم يراه فى الشجاعة والكرم، وبعضهم يـــراه فـــى

التــلذذ بالحياة ما أسعفته،وبعضهم يراه فى الوفــاء بــالوعد،والبعــض الآخر يراه فى الصــدق وحفــظ الســر.وكأننــا أمــام جماعــة مــن السوفسطائيين كل منهم يرى فى نفسه المثل الأعلى فى تصرفه.

ولذلك لا نستطيع أن ندعى أنه فى باديء الأمر كان فى الجاهلية جماعة يسمون الفتيان واحدهم فتى، إنما كل مافى الأمر أن الكلمة تطلق على بعض الأفراد فى كل قبيلة جمعوا مع الشاب والقــوة والشجاعــة صفة بينه من الصفات قد تكون الكرم،أو النجدة،وقد تكون الوفاء بالوعد والالتزام بالعهد ، وقد تكون الصدق وحفظ السر ... أو غير ذلــك من الفضائل والصفات المحمودة .وربما تكون بعض هذه الصفات والسمات غير محمودة ــ فألغاها الاسلام نهى عنها كشرب الخمــر، وحضــور مجالس اللهو والانغماس فى اللذات.

ويخيل الى أنه كان فى الجاهلية طبقتان مختلفتان،وان تلاقا فــى بعض الخصال، الفتيان وهم أولاد الأغنياء من الشبان، والذين يبغــون من وراء فتوتهم السؤدد والرياسة. ويقابلــهم أولاد الفقــراء ويســمون الصعاليك.فالصعلكة كما وردت فى كتب اللغة تســاوى الفقــر. ففــي القامــوس المحيط صعلكه ..أفقره ..والصعلوك الفقــير، وتصعلكــت الإبل خرجت أوبارها وعروة الصعاليك هو إبن الورد لانه كان يجمــع الفقراء (الصعاليك)فى حظيرة فيرزقهم مما يغنمه(٦).

وفى هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر، وأنها فــى استعمالاتها الأخرى تدور أيضا حول الفقــر، بمعنــاه المبــاشر وهــو التجرد، فان الفقر فى الإنسان هو التجرد من الغنى، وكذلك التصعلــك

فى الإبل بالتجرد من أوبارها. وفى لسان العرب الصعلوك الفقير الذى لا مال له، وزاد الأزهري ولااعتماد، وتصعلك الرجل اذا كان كذلك.

وفى هذا التعريف للصعلكة نجد أن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوي للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفي لها بقوله: وزاد الأزهري واعتماد فان قوله ولا اعتماد، يعبر عن معنى دقيق فى مفهوم الصعلكه بالمعنى المعروف لها،وإذا كان الفقر من أهم الدوافع الى الصعلكة فان ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء، إنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا أحدا من الناس عمادا لهم، فى حين رضى بعض الفقراء لا نفسهم الذل والاستكانه(٧).

وإذا ما تساءلنا عن وسيلة عيش هؤلاء الصعاليك لوجدنا أنهم كانوا يعيشون وينفقون من الإغارة على الأغنياء والسطو على أموالهم،وحجتهم فى ذلك أنهم يغيرون على الأغنياء البخلاء الأشحاء أما الأغنياء الكرام فيتركوهم وشأنهم بل ويحافظوا على أموالهم(٨). ويعبر أحد الصعاليك ــ وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه

ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(٩)

وجدير بالذكر أن هذا الخلق يتعارض مع سمات الفتوة ــ وخصة الاسلامية ــ إذ أن الفتوة تقوم على مجموعة من الخصال الحميدة ولا تقوم على السلب والنهب واللصوصية. وهنا يمكن القول أن كلمة صعلوك إذا كانت تعنى فى مدلولها اللغوى الفقير فقد وجدنا أنها تعنى فى مدلولها العرفى اللص، وذلك لأن هذا الفقير الصعلوك يعتمد فى معيشته على السطو والإغارة واللصوصية.

وهنا نجد سؤالاً يطرح نفسه، هل إقتصرت الصعلكة على أساليب اللصوصية وحدها، وما تتطلبه من سرعة العدو والقوة والمنعة والفتك بالأعداء.... أم تعدت ذلك إلي صفات أخرى أرفع وأسمى؟

حقيقة الأمر أنه لكى نجيب على هذا السؤال لابد لنا أن نتعرف على شخصية من شخصيات الصعاليك حتى نرى ما كان يتحلى به من صفات وخصال. ولتكن هذه الشخصية عروة بن الورد العبسى، الملقب بعروة الصعاليك.

فقد إمتاز عروة بأنه أضفى على الصعلكة كثيراً من الاحترام والتقدير، وذلك راجع إلى ما تحلى به، عروة من خلق فريد فى السخاء، والعطف الشديد على الفقراء ويتضح ذلك فى قوله (١٠).

اقسم جسمى فى جسوم كثيرة

واحسوا قراح الماء والماء بارد

ومعنى تفريق أو تقسيم جسمه فى جسوم كثيرة، إنه يقسم غذاءه الذى يكون جسمه على أجسام كثيرة ليكونهم بينما يكتفى هو بالماء.

ولذلك لقب "بعروة الصعاليك" ويقصدون بالصعاليك هنا الفقراء والسبب فى هذا اللقب أن عروة كان كثيراً ما يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم(١١).

وهكذا يمكن القول أن الصعلكة تلتقى مع الفتوة فى بعض الخصال، فهى لم تقف عند حد اللصوصية وإلا غارة على الاغنياء، بل تعدت ذلك إلى بعض الخصال الحميدة التى إشتهر بها المجتمع العربى الجاهلى مثل، العطف والكرم والنجدة... وقد أجمع أبى المثلم كثيراً من هذه الخصال فى رثاء صخر الغى إذا يقول :

أبى الهضيمة آت بالعظيمـــة متـــ
ــلاف الكريمة لا سقط ولا وانـــى
حامى الحقيقة نسال الوديقـــة معـــ
تاق الوسيقة جلد غير ثنيـــــان
هباط أودية شهاد أنديـــــــة
حمال ألوية سرحان فتيـــــان
يحمى الصحاب إذا جد الضراب ويكـــ
فى القائلين إذا ما كبل العانـــــى
يعطيك مالا تكاد النفس تسلمـــــه
من التلاد وهوب غير منـــــان(١٢)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على تلك العلاقة بين الصعلكة والفتوة، يمكن القول أنهما وإن إشتركا معاً فى بعـض الخصـال أو الصفـات كالشجاعة والاقدام الكرم وإيواء الضيف... إلا أنـه يمكـن القـول ان شجاعة الصعاليك كان يشوبها كثيراً من الحـذر واليقظـة نظـراً لأن حياتهم يسودها الرهبة والقسوة والخطورة فليست فى حياتهم ساعة تخلو من الخطورة أو الخوف أو توقع المكروه.

ويوضح الشنفرى سبب هذه اليقظة والحذر، فهو بالإضافة إلـى أنه طالب صيد به فهو أيضاً طريد جنايات كثيرة جناهـا، جعلـت لـه أعداء كثيرين يتربصون به، إن نام هو، فعيونهم يقظى متعجلة الظفـر به. فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه
عقيرته لأيهاحـــم أول

تنام إذا ما نام يقظى عيونها

حثاثا إلى مكروهه تتعجـــل(١٣)

فهذه الحياة التى كان يحياها الصعاليك تختلف عن تلك الحياة التى عرفها الفتيان فى الجاهلية من لهو وإستمتاع. ويحدثنا قيس بن الحدادية، والذى كان يعتبر قبل خلعه من فتيان قومه والفرسان المعدودين، فيقول عن إنتقاله من حياة الدعة والهدوء ــ أى حياة الفتيان الفوارس. إلى صراع الحروب ــ أى حياة الصعاليك والخلعاء

وأصبحت بعد الأنس لابس جبة

أساقى الكماة الدارعين العواليا(١٤)

بالإضافة إلى ما سبق نجد فرقاً آخر بين الصعلكة والفتوة، وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون، بينما الصعاليك يعطون ما يعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم الفقراء متساوون. وإن شئت قلت : أن الفتيان يعطون ما يعطون عطفاً وتفضلاً والصعاليك يعطون أداء لما يرونه واجباً.

وهكذا يتضح لنا أن هناك خلافاً حول مفهوم الفتوة قبل الاسلام، وذلك راجع إلى ما تضفيه البيئة على معنى الكلمة وإلى فهم كل شخص أو بالأحرى كل فتى لمعنى الفتوة، فتارة تعنى الشجاعة والكرم... إلى جانب باقى الخصال الحميدة وتارة أخرى تعنى اللهو والمجون وشرب الخمر... إلى غير ذلك من الخصال الغير محمودة ويبقى أمامنا الأن التعرف على بعض مظاهر الفتوة قبل الاسلام ومن خلالها نصل إلى الغاية التى يسعى إليها الفتيان.

القوى المادية للفتوة

الشجاعة

إذا ما نظرنا إلى الشجاعة عند فتيان العرب لوجدنا أن الفتى العربى لا يهاب الموت ويجود بالنفس فى سبيل ما يدافع عنه :

نجود بالنفس إن ضنى البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود.(١٥)

ومما هو جدير بالذكر أن العرب قد إعتبروا القوة والبطش ملازمة للشجاعة إذ أن دواعى الخلاف بين القبائل كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف، وهذا الأمر يقتضى يداً قوية وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزيلاً. لذلك أصبح من دواعى فخارهم أن يكون الفتى (١٦)

فتى قد قد السيف لا متضائل

ولا رهل لباته وأباجله

إذا جد عند الجد أرضاك جده

وذو باطل إن شئت أرضاك باطله

يسرك مظلوما ويرضيك ظالما

وكل الذى حملته فهو فاعله

والشجاعة تقتضى من الفتى أن يفضل الموت على العيشة الذليلة والرضا بالضيم. بل أدى الأمر ببعض الفتيان إلى حد الاستهانة بالموت مقارنة بموقف آخر أسوأ من الموت ذاته كالمقارنة بين الفرار فى الحرب والموت. حين يرى الفتى إن الموت خير من عار الفرار أحيانا، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلى عن الزود عن

العرض والشرف، وحين يرى الزائد حينئذ أن الموت خير له من ذلـــك العار(١٧).

فها هو قيس بن منقذ (المعروف بابن الحدادية) يفضل المـــوت عن الوقوع فى الأسر من ذل وهوان. إذ حـــاصره جمـــع المغـــيرين للغنيمة فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة، فأبى قائلا : نفســـى أكرم على من الأسر، وأثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجـــز مســـتهيناً بالموت :

أنا إذا الموت ينال غاليه

مختلط أسفله بعاليـــــه

قد يعلم الفتيان أنى صاله

إذا الحديد رفعت عواليه(١٨)

ومما هو جدير بالذكر أن الاستهانة بالموت وإقتحام المهالك كان يصاحبها دائماً الحيطه والحذر، فالفتى الشجاع فى ميدان القتال مهما بلغ من البساله والإقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيطه وحذر. وهذا الحذر جعل الفتى ــ فـــى ميـــدان القتـــال ــ لا يستسلم لسلطان الغفلة، حتى إنه إذا نام ظل قلبه حارســـاً يقظاً محاذر ينبهه إلى أى خطر يحيط به :

إذا خاطر عينيه كرى النوم لم يزل

له كالئ من قلب شيحان فاتـــــك

ويجعل عينيه ربيئه قلبـــــــه

إلى سلة من جد أخضر باتـــــك(١٩)

وهذا دليل على أن الفتى مهما أوتى من شجاعة، يجب أن يأخذ كل حيطة وحذر حتى لا يؤخذ على غرة.

ومراتب الشجاعة والشجعان كما يراها إبن القيم هى :

أولاً الهمام : وسمى بذلك لهمته وعزمه. وجاء على بناء فعال كشجاع.

ثانياً المقدام : وسمى بذلك من الإقدام وهو ضد الاحجام. وجاء على أوزان المبالغة، كمعطاء، كثير العطاء.

ثالثاً الباسل : وهو اسم الفاعل من بسل يبسل، كشرف يشرف والبسالة الشجاعة والشدة.

رابعاً البطل : وجمعه أبطال، وهو بمعنى فاعل لفظاً ومعنى، لأنه الذى يبطل شجاعة غيره فيجعلها بمنزلة العدم، فهو بطل بمعنى مبطل.

خامساً الصنديد : بكسر الصاد، والعامة تلحن فيقولون صنديد بفتحها والصنديد الذى لا يقوم له شئ(٢٠)

ولما كانت الشجاعة خلقاً كريماً يتحلى بها الفتيان، فأنها تتطلب الاقدام فى موضع الاقدام، والاحجام فى موضع الاحجام، والثبات فى موضع الثبات، والزوال فى موضع الزوال.

وضد ذلك مخل بالشجاعة وهو إما جبن وإما تهور، وإما خفة، وطيش. وعلى هذا يمكن القول أن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، وإن كانت إلى التهور أقرب منها إلى الجبن، فالفتى الشجاع لا يعرف الجبن أو التخاذل إلى قلبه سبيلاً، وإنما تراه مقداماً يخوض فى قوة وبسالة.

وإذا ما تساءلنا عن العوامل التى ساعدت على إظهار شجاعة فتيان العرب لأمكن القول : ان الحياة البدوية التى يعيشونها فى صحراء شبه شحيحة مجدبة وتوحشهم فى الضواحى، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم،عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم(٢١).

هذه الحياة البدوية فضلاً عن طبيعة الصحراء وما تكسبه للجسم من القوة البدنية، جعلت فتيان العرب دائماً يحملون السلاح بيد قوية وقلب ثابت لا تعرف جنوبهم الراحة والدعة، ينفردون فى الصحراء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، حتى صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو إستفزهم صارخ(٢٢).

والآن نريد أن نتسائل ما هى الغاية التى يسعى إليها فتيان العرب الشجعان؟ إننا إذا ما نظرنا إلى الغاية من الشجاعة عند فتيان العرب نجد أن الفتى العربى كان يقتحم الخطوب والمعارك بقلب ثابت ويد قوية وشجاعة بالغة المدى، واثقاً من شجاعته وبأسه وحنكته فى ساحات القتال. وذلك لأنه يبغى من إقتحام المكاره الحمد والصيت، والبقاء فى عزة وحرية له ولقبيلته فيخشى بأسها الأعداء، ولا يطمعون فيها. ولا عجب إذا سمعنا شاعرهم يقول :

ما تعترينى من خطوب ملمة

إلا تشرفنى وتعظم شانى(٢٣)

من هذا يتضح لنا أن شجاعة الفتى تلبسه المجد والشرف وتعظم من شأنه فى القبيلة وتوصله إلى أعلى مراتب السيادة والرئاسة. وهذا هو غاية ما يطمح إليه الفتى العربى.

بالإضافة إلى ما سبق نجد أن كثرة الشجعان بين العرب، نتيجة إمتداح الرأى العام للشجاع القوى الذى يلبى النداء إذا دعى للنجدة، أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه فى محنة. ولا جدال أن للرأى العام فى نفوس البعض سلطان قوى يتأثر به الفرد، وتتأثر به الجماعة، والعرب كانوا يمتدحون القوى الشجاع، ويهزءون بالجبان الهيابة الذى يفر من ساحات القتال ولا يلبى النداء.

الخيل والإبل ـ

لقد إعتنى فتيان العرب بأجسامهم، فاكتملت قوتهم وعظم إحتمالهم للخطوب والشدائد وتعودوا خوض المعارك والمحن، واستهانوا بالموت.

كل هذا جعل الشجاعة سمة مميزة لفتيان العرب، مما أدى بهم إلى أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال، وأول هذه الأدوات ـ بعد القوة الجسمية ـ جواد أصيل، مدرب على أن يكون هادئاً وسط المعركة، يكر بصاحبه، ولا يفر أو يرتد عن المعركة إلا إذا كان هناك ضرورة لذلك.

ولا جدال أن المطايا من لوازم العربى ـ بصفة عامة ـ فى حياته البدوية لأن معاشه غير مستقر، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن أو أصحاب المهن الزراعية، وإنما هو شخص متنقل دائم السعى وراء موارد الماء بحثاً عن الكلأ. ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة، أو فرساً يعد غنياً أو خارجاً عن نطاق الفقراء والمحتاجين، لأن الناقة الواحدة أو الفرس ليست ثروة بالمعنى

المفهوم، وإنما هى أداة تنقل وسعى للرزق، وكأنها جزء من حياته فـــى المجتمع العربى القديم.(٢٤)

ولما كانت الابل تستخدم في التنقل والترحال، فإن الخيل كـــثر إستخدامها فى الحروب والمعارك، لذلك نجد أن فتيان العرب إعـــتزوا بالخيل وعرفوا لها منزلتها، وعدوها بمنزلة أولادهـــم، وكــان يــهنئ بعضهم بعضا إذا ولدت فرس ويحتفلون بمقدم المهر المولود إحتفـــالا يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم.

ليس هذا فحسب بل فضلها بعضهم على أولاده، يجوعـــون ولا تجوع ولا بدع فهى التي تحمى الأسرة، وتجلب الرزق، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله.(٢٥)

لهذا نجد الشعر العربى زاخرا بوصف الخيل، ومدحها، والتغنى بقوتها وسرعتها فى العدو والجرى، سواء أكان هذا الأمر أثناء الصيـــد أو فى ساحة القتال. وفى هذا الصدد يقول شاعرهم :

رمنا الصيد فرادينا بـــــــــه

أو أبد الوحش فأجرى وإكتســب

مجزم الجرب يبــــــارى ظله

ويعرق الاحقب فى شوط الخيب

إذا تظنينا به صدقنـــــــــــا

وإن تظنى فوته العير كـــذب

لا يبلغ الجهـد به راكبـــــــه

ويبلغ الريح به حيث طلـــب (٢٦)

وكان فتيان العرب ــ كما ذكرنا ــ يؤثرون الخيل لعدة أغراض أهمها : الغنم بها إذ تستخدم فى الصيد والقنص، ومجابهة المخاطر فى الحروب والمعارك.

فهذا مالك بن حريم يذكر أن فرسه من جودتها حين تعثر إحدى قوائهما لاتكبو وإنما تعاونها الثلاث الأخرى من قوائمها فيستقيم سيرها فيقول :

إذا وقعت إحدى يديها بثبرة

تجاوب أثناء الثلاث بدعدعا

ثم مقربة أدنينها وأفتليتهـــا

لتشهد غنما أو لتدفع مدفعا(٢٧)

وعندما أشرف "مالك بن الريب" على الموت وجد نفسه غريبـــا منفردا يلتمس زوجه وفيه، أو أما رؤوما، أو بنية عاطفة تبكـــى ميتـــة الفتى الشجاع، فالتفت فلم يجد حوله سوى سيفه ورمحه وفرسه، إذ ليس للفتى من إنتماء بعد وطنه وآله سوى عدة فروسيته :

تذكرت من يبكى على فلم أجـــــد

سوى السيف والرمح الرذينى باكيا

وأشقر خنديذ يجر عنـــــــــانه

إلى الماء فلم يترك له الدهر ساقيا(٢٨)

فى هذه الصورة الفنية البديعة يصور لنا مالك أن الذى يبكـــى عليه بعد موته سيفه ورمحه. وأن فرسه الأشقر الفخم الأصيل،قد لحقته المحنه بفقد صاحبه، فيمشى كئيبا إلى الماء، بل أنه ليجر جسده المثقـــل وأقدامه المقيدة وكأنه يمشى فى جنازة.

وأبو خراش الهزلى مع ما عرف به من سرعة العدو، حتى قيل عنه أنه أسرع من الخيل، إذ تراهن مع الوليد بن المغيرة على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق، فسبقهما ــ أبو خراش ــ وفاز بهما(٢٩). نجده على الرغم من ذلك يصف خيلاً مغيرة، وصفا قلما يتاح لشاعر، وذلك فى قصة رجل من قومه بنى هزيل ــ قتل جاراً له من بنى تميم، فأنكر أبو خراش ذلك إنكاراً شديداً.

فصور أبو خراش فى هذا الشعر أن الغلام التميمى حين أحس الغدر والموت دعا قومه، ولكن بينه وبين قومه ودياناً وأنهاراً، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا إليه على خيلهم فى أقص عجلة وسرعة متصورة، يلهبون خيلهم بالسياط والركل بالاقدام. وفى هذا السياق يصف أبو خراش الخيل بوصفين يصوران أقصى ما يتاح لشاعر أن يصوره من خيل فى مثل تلك الحالة وهما : إن الناظر إلى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواهها، ويرى أحداق أعينها فى وضع غير عادى كأنه الحول فيقول :

دعا قومه لما إستحل حرامه

ومن دونهم عرض الاعقة فالرمل

ولو سمعوا منهم دعاء يروعهم

إذا لأتته الخيل أعينها قبل

شواحى يمريهن بالقوم والقنا

قروع السياط والأعنة والركل(٣٠)

وهكذا يتضح لنا أن ركوب الخيل يعد من أفضل وأهم خصال الفتوة بمعناها المادى، وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

أولا: أن ركوب الخيل أصل الفتوة ـ المادية ـ وقاعدتها

ثانيا : أن ركوب الخيل يعلم الكر، والفر، والظفر بالخصم

ثالثا : ان الحاجة إلى المبارزة بالسيف، أو الرمى بالرمح والقوس يحتاجها الفتى فى ساعة، وأما ركوب الخيل فالحاجة إليه من أول ما يخرج الفتى إلى القتال إلى أن يرجع(٣١)

وإذا كانت الخيل هى المطية التى تستخدم فى ساحات المعارك والقتال بالإضافة إلى استخدامها ـ أيضا ـ فى القنص والصيد. فإن الابل هى الاداة الطبيعية للسير فى الصحراء بما هيأها الله لذلك. ولهذا كثر إستخدامها فى التنقل والترحال وسفر القوافل التجارية من بلد إلى آخر.

ولذلك وصفت الابل بالسرعة، والقوة، والصبر، فنجد، عبدة بن الطيب يصف ناقته بأن طرف خفها يترك فى الأرض أثرا كأنه الازميل يقطع الجلد وهذا دليل على القوة، والضخامة، وأنها مع سرعتها تجد لها تقدما وترجيعا كأنه الدلال، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنها غربالان ينقيان الوغل الردئ. يقول :

عيهمة ينتحى فى الأرض منسمها

كما إنتحى فى أديم الصرف أزميل

تخذى به قدما طورا وترجعه

فحده من ولاف القبض مفلول

ترى الحص مشفترا عن مناسمها

كما تجلجل بالوغل الغرابيل(٣٢)

ولأهمية الابل ومكانتها فى حياة العرب لا نستطيع أن نغفل موقف عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما إستولى أبرهة على مائتى بعير له، وهو فى طريقه إلى مكة عندما سولت له نفسه محاولة هدم الكعبة، فرفض عبد المطلب أن يترك الأبل فى حوزة أبرهة، وذهب إلى مقابلته لاستردادها. ولما وصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة، أكرمه وسأله عن حاجته. فقال : حاجتى أن ترد على مائتى بعير أصبتها لى. فقال أبرهة : أتكلمنى عن مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الابل، وان للبيت ربا سيمنعه ويحميه، فرد أبرهه على عبد المطلب الابل(٣٣).

وهكذا نكون قد ألقينا بصيصا من الضوء على أهمية الخيل والابل فى حياة فتيان العرب، بصفة خاصة، والمجتمع العربى بصفة عامة.

وقد رأينا مدى الأهمية والمكانة التى تحتلها هذه المطايا فى نفس العربى، إذ هى وسيلته إلى الحياة وطلب الرزق، وذلك إذا ما استخدمت فى الصيد والقنص، أو إستخدمت فى التنقل والترحال وحمل تجارة القوافل.

كذلك هى وسيلة فتيان العرب إلى المجد والبطولة، والوصول إلى مراتب السيادة والشرف فى القبيلة، إذا ما إستخدمت فى ساحات القتال ونجدة الملهوف ومعاونة المحتاج. إلا أن الخيل أو الأبل وحدها لا تكفى لخوض الحروب والمعارك، إنما لابد من السلاح الذى يستخدم فى القتال.

السلاح

إذا كان حمل السلاح شيمة العربى، يرى سلاحه جزءا منـــه لا يفارقه فى سلم أو غيره، فهو ملازم له فى كل أوقاته. فمن باب أولـــى أن يعتنى فتيانهم بحمل السلاح، الذى يعتبر عدة الغلبـــة والظفـــر بعـــد شجاعته وقوته الجسمية ومرانه على إحتمال الشدائـــد، وبعـــد جـــواده الأصيل المدرب على خوض المعارك.

ويحدثنا زهير بن جناب عن الأسلحة التى يستخدمها الفتى فى المعركة. يقول :

سيوف وارماح بأيدى اعزة

وموضونة مما أفاد محـــرق(٣٤)

وإذا كان زهير بن جناب جعل سلاحه وعـــدة الحـــرب التـــى يستخدمها تتمثل فى السيوف والرماح تقبض عليها أيد قوية لا تضعـــف ولا تلين. فإن الشنفرى قد زاد إلى ذلك القوس والسهم. إذ يقول :

وأبيض من-ماء الحديد مهنـــد

مجذ لأطراف السواعد مقطـــف

وصفراء من نبع أبى ظهيـــــرة

ترن كارنان الشجى وتهتـــــــف

إذا طال فيها النزع تأبى بعجسها

وترمى بذرويها بهـــــن فتقذف

كأن حفيف النبل من فوق عجسها

عوازب نحل اخطآ الغار مطنـــف(٣٥)

وفي حديث الشنفرى عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثه أحدهما : اللون، فنجد أنه يصفها بصفرة اللون، وهو اللون الأصيل فى القوس والمعنى الآخر : الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم، أو صوتها مع صوت السهم فى إنطلاقه وإندفاعه الشديد فى الفضاء(٣٦)

والشنفرى حينما أراد أن يصور لنا هذه الصورة شبه الصوت الذى تحدثه القوس بصوت النحل حين يخطئ غارة وخلاياه فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق.

أما صخر الغى فيرى لقوسه رنينا خاصا مغردا فى بحة ودوى كأنه صوت العدائين حين يطلبون شيئا فيتجاوب صدى تناديهم. يقول :

وسمحة من قس زارة صفراء

هتوف عدادها فرد

كأن أرنانها إذا ردمت

هزم بغاة فى أثر ما فقدوا(٣٧)

وإذا كان السيف والقوس من عدة القتال فإن الرمح ـ أيضا ـ يعد من الأسلحة التى يغلب استخدامها فى الحروب. يقول تأبط شرا :

فقلدت سوار بن عمرو بن مالك

بأسمر جسر القذتين طميل

فخر كأن الفيل القى جرانه

عليه بريان القواء أسيل(٣٨)

أى أنه القى على سوار بن عمرو، رمحا ضخما عريض النصل فأوقعه لا حراك فيه، كأن الفيل انحى عليه بعنقه فوق الأرض، وإن

هذه الأرض فقراء ملساء مخضلة بالماء، وكل هذه الصفات مما يزيـــد التصاقه بالأرض، بل غوصه فيها نتيجة قوة الضربـــة بـــهذا الرمـــح الأسمر الضخم العريض.

بالإضافة إلى إستخدام الرمح فى الحروب فإنه يستعمل أيضا فى القنص والصيد، وجدير بالذكر أن الصيد من الضروريات فـــى حيـــاة العرب لطعامهم ومعاشهم، ولذلك نجد صخر الغى يصف الرمـــح فـــى سباق صيد حمارى وحشى فيقول :

فشامت فى صد ورهما رماحا

من الخطى أشربت السمامـــا(٣٩)

وإذا كان الفتى العربى يحتاج إلى السلاح فإنه بالتالى محتـــاج إلى وسائل الحماية والوقاية فى الحرب، ويعتبر الدرع من أهـــم هـــذه الوسائل.

فاستلاموا وتلببوا

إن التلبب للمغير(٤٠)

أى أن الفتيان لبسوا اللامات وهى الدروع، وتحزموا وإســـتعدوا للإغارة على أعدائهم. والدروع تعطى الحماية والوقايـــة للفتـــى مـــن ضربات السيوف أثناء المعركة وكان فتيان العـــرب يفضلونـــها عـــن الترس، وذلك لأن الدروع تجعل الفتى أسرع حركة فى ميدان القتال.

وهكذا نجد أن العرب عامة، وفتيانهم خاصة، يعنون بالســـلاح ويحبون اقتناءه، ولا عجب فإنهم فى بيئة تقدر السلاح ومنفعته فضـــلا عن أنه عدتهم فى الحروب، فإنه جد ضرورى لهم فى الصيد.

وللصيد فى جزيرة العرب منزلته. فكثيرا ما يحتـــاجون إليــه لغذائهم، بل أن منهم من يعتمد عليه فى معيشته، يصطـــادون الظبــاء وحمر الوحش، والوعول البرية وبقر الوحش وغيرها.

ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على مـــا ســواها، ويعدونها أفضل أسلحتهم، بل منهم من يجعل السيف هو كل ما يملك :

وكيف ينام الليل من جل مالـــه

حسام كلون الملح أبيض صـــارم

صموت إذا عض الكريهة لا يدع

لها طمعا طوع اليمين مـــلازم

فقدت به ألفا وسامحت دونـــه

على النقد إذ لا تستطاع الدراهم(٤١)

وهنا نجد أن الفتى يذكر أن كل ما يملك من حطام الدنيا ما هــو إلا سيفه الابيض الصارم، وإن هذا السيف صامتا لا يتكلـــم، وعندمـــا يخوض به الحروب والمعارك يجده طوع يمينه ملازما له. ويتفـــاخر الفتى بأنه دفع الف درهم ثمنا لهذا السيف عن سماحة نفس فـــى وقـــت قلت فيه الدراهم.

ومما يدل على محبة فتيان العرب للسيف كثرة الأسماء الدالـــة عليه حتى قاربت المائة إسم، وكانت هذه الأسماء صفـــات، والصفـــات تكثر للشئ حين تزيد العناية به، والتغنى بمحامده وآثاره(٤٢).

وإذا ما تحدثنا عن صفات السيف لوجدنا أنـــها تنحصـــر فـــى معنين: أحدهما اللون والمعنى الآخر، مدى فاعلية السيف عند الاستخدام فى الحروب والمعارك.

وفى هذا الصدد يقول الشنفرى :

وابيض من ماء الحديد مهنـــد

مجذ لأطراف السواعد مقطف(٤٣)

وفى موضع آخر يقول :

حسام كلون الملح صاف حديده

جراز من اقطار الحديد المنعت(٤٤)

وهنا يصف الشنفرى سيفه بأن لونه أبيض كلون الملح، وبأنـــه صنع من ذوب الحديد الصلب. وأن هذا السيف بتار يقطف به سواعد الأعداء إذا ما لزم الأمر عند القتال.

ولقد بالغ فتيان العرب فى إمتداح سيوفهم، فوصفوهـــا بـــالحدة، وقوة المضاء والقطع فقال النابغة :

فهم يتساقون المنية بينهـــــم

بأيديهم بيض رقاق المضارب

يطير فضاضا بينها كل قونس

ويتبعها منهم فراش الحواجب(٤٥)

فالسيوف فى حدتها وقوة ضرباتهم بها تطير العظـــام الرقيقـــة للجمجمة، وليس ذلك فحسب بل أنها تقطع الدروع المضاعفة النســـيج، لتنفذ من بدن العدو حتى تصل إلـــى الأرض فتقـــدح الشـــرور مـــن الحجارة.

ومن الغريب أن السيوف إذا لمعت وبرقت فى المعركة فإنـــها تذكرهم بابتسامة الحبيبة كما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهـــــل

منى وبيض المهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنهـــــا

لمعت كبارق ثغرك المتبســــم(٤٦)

وهكذا نكون قد إنتهينا إلى أن القوى المادية للفتوة عند فتيان العرب، تمثلت فى الشجاعة بمعناها المادى المتمثل فى القوة البدنية وسرعة البطش بالأعداء، وما تتطلب هذه الشجاعة من فرس أصيل مدرب على الكر والفر فى ساحات القتال، بالإضافة إلى عدة حربية متمثلة فى سيف مهند بتار، ورمح أسمر طويل عريض النصل، وقوس بلونها الأصفر الاصيل تصدر صوتا محببا للفتى حين ينطلق عنها السهم مندفعا بشدة فى الفضاء.

إلا أن الفتوة لم تقف عند حد المعنى المادى أو بالأحرى القوى المادية فحسب، وإنما للفتوة معنى آخر، وهو القوى المعنوية للفتوة، الذى يتمثل فى الكرم، والنجدة، والوفاء، وإيواء الضيف.... إلى غير ذلك من الخصال الحميدة.

القوى المعنوية للفتوة

الكـــرم

إذا أردنا أن نعرف الكرم لأمكن القول : إن الكرم يعنى الإنفاق عن رضا، فيما يعظم نفعه وخطره، أو بذل المال فى سبيل من سبل الخير والبر(٤٧).

ولكن هل لنا أن نعتبر هذا التعريف للكرم جامعا شاملا ـ على حد قول المناطقة حقيقة الأمر إن هذا التعريف قد حصر الكرم فى معنى الانفاق، أو بذل المال إلا أنه قد غفل عن الدافع إلى الكرم، أو بالأحرى، لم يذكر التعريف، ما هى العوامل التى ساعدت على أن يشتهر العرب بالكرم دون غيرهم؟ كذلك نريد أن نتسائل ما هى الغاية التى يسعى إليها الفتى العربى، وتجعله سخى كريم يجود بماله لمنفعة الآخرين؟

لا جدال على أن الكرم يعد من أبرز الصفات التى يتحلى بها الفتى، بل إن كثيرا ممن عرفوا الفتى عند العرب قالوا : إنه الشاب السخى الكريم، والفتوة هى الشباب والكرم(٤٨).

وإذا ما نظرنا إلى الدافع الذى دفع فتيان العرب إلى الجود والكرم، نجد أن هذا الدافع يتمثل فى طبيعة الحياة التى كان يحياها العرب فى الصحراء. إذ أنهم كانوا يعيشون فى صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء ـ اللهم إلا ما ندر ـ وإزاء هذا كان العربى مضطر دوما إلى الارتحال من مكان إلى آخر بحثا عن منابع الماء ومصادر الكلأ، بسبب الجدب والجفاف، ليحفظوا حياتهم من الموت والهلاك، ومن هنا

كانت حياتهم ترحالا، وتجوالا فى هذه البادية الشحيحة المجدبة، وكـــان كل واحد منهم معرضا لأن ينفذ زاده وشرابه أثناء الترحال.

وهذا هو الذى ولد لديهم الشعور بالحاجة إلى واجب مقدس، هو واجب الضيافة والكرم، وكأن هذا الخلق شيئا عامـــا ولدتــه الطبيعـــة. وصار الإخلال به فضيحة وعار ونوعا من الجريمة الاخلاقية، التـــى تتنافى مع الخلق العربى الأصيل(٤٩).

ويعتبر الكرم من الصفات التى ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة وذلك لأن طبيعة الحياة فى الصحراء ــ كما ذكرنا ــ فيها قسوة بالغــة على قاطنيها، فكثيرا ما تشح السماء، وتجدب الأرض، ويلـــوح شبــح الفاقة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية، فإن لم يتقدم من عنــده فضل من غنى أو زاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقـــاع المجدبـــة هلكـــوا جوعا. فكأن العرب بتعظيمهم الكريم وتقديمهم الاسخياء للرئاسة إنمـــا يعملون بذلك على حفظ حياتهم فى فناء محقق.

مما سبق يمكن القول إن الغاية من الكرم عند العرب إنما هـــى السيادة والرئاسة، وأن يكون الكريم محمود السيرة فى قومـــه ويذكـــر بذلك.

فقد قال عدى بن حاتم الطائى للنبى صلى الله عليه وســـلم : إن أبى كان يطعم المساكين، ويعتق الرقاب، ويصل الرحم فهل له من ذلك أجر"؟

قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : "أن أبـــاك رام أمـــرا فأدركه".(٥٠) [يعنى الذكر والشهرة والسيادة فى قومه].

وتأكيدا لهذه الغاية التى كان يسعى إليها كرام العرب، وفتيانهم، فقد ذكر إن أول ما ظهر من جود حاتم الطائى، أن أباه خلفه فى إبلـــه وهو غلام، فمر به جماعة فى طريقهم إلى النعمان، فقالوا لحاتم: هـــل من قرى؟ فقال :

تسألونى القرى وقد رأيتم الأبل، انزلـــوا، فـــنزلوا فنحـــر لـــهم وأطعمهم وأكرمهم وجاء أبوه فقال له : ما فعلت؟ قال : طوقتك مجـــد الدهر تطويق الحمامة،وأخبره بخبر ضيوفه وإكرامهم فقال أبوه : إذاً لا أبالى(٥١).

وهكذا يتضح لنا من هذا الموقف أن الغاية التى سعى إليها حاتم الطائي من إطعام ضيوفه، وإكرام وفادتهم، إنما مجـــد أبـــوه وشهرتـــه ورياسته لقومه وهذا المجد يعود عليه هو الآخر، بل يعود على القبيلـــة بأسرها إذ تفتخر القبائل بأن فيها فتيان كرام.

وإذا كان الكرم قد أصبح عادة تأصلت فى نفس العربى، فقد كان المحرك الأول، والدافع الأساسى لهذا الكرم، هو غريزة التغلب علـــى الحياة ومقاومة قسوتها، ومد يد العون للمحتاجين ومساعدتهم.

فها هى أم عتب بنت عفيف (أم حاتم الطائى) تمد يـــد العـــون لأصحاب الحاجات فقد كانت موسرة ذات مال وثراء، لا تمسك شيئـــا، وكان أخواتها يمنعونها فتأبى فحجروا عليها سنة يطعمونها، لعلها تكف عما تصنع، ثم مكنوها من صرمة من إبلها. وقالوا : إســتمتعى بـــها. فأتتها إمرأة من هوازن فسألتها. فقالت : دونك الصرمة، فقد والله ذقت من الفقر ما أليت أن لا أمنع سائلا أبدا. وأنشدت تقول : (٥٢)

لعمرك قد ماعضني الجوع عضة

فأليت ألا أمنع الدهر جائعـــــــــا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنـــــــى

وإن أنت لم تفعل فعض الأصبعـــــا

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية، والحرية الخلقيـــة هـــى إرادة الفتى الذى يجود بماله فى سبيل إسعاد غيره من الناس، كما فعل النمر بن تولب، عندما ذهب إلى صديق له فى ناس من قومه يسألونه فى دية إحتملوها فلما رأهم قال : إن لى نفسا تـــأمرتى أن أعطيكـــم، ونفســا تأمرنى ألا أفعل فقال النمربن تولب :

أمال خليلى فأنى غير معجلـــــه

حتى يؤامر نفسيه كما زعمـــــا

نفس له من نفوس الناس صالحة

تعطى الجزيل ونفس ترضح الغنما

ثم قال ــ النمر ــ لأحابه ــ لا تســألوا أحــدا ، فالديــة كلـــها على.(٥٣)

بالإضافة إلى هذا يذكر صاحب الأغانى مثلا من كرم النمر بن تولب، فيقول : خرج النمر بن تولب بعد ما كبر فى إبله، فسأله ســائل، فأعطاه فحل إبله، فلما رجعت الابل إذا فحلها ليس فيــها، فــهتفت بــه إمرأته، ولا مته على ذلك فقال لها :

بكرت باللوم تلحانـــا

في بعير ضل أو حانا

علقت لوا تكررهــــا

إن لوا ذلك أعيانـــــا(٥٤)

ومن أمثلة الكرم النادرة فى الجاهلية الجود بالمال فى سبيل إنقاذ البنات من المرت. فها هو صعصعة* وكان يلقب بصعصعة محى المؤودات.

وذلك لأنه مر برجل من قومه، وهو يحفر بئرا، وإمرأته تبكى، فقل لها صعصعة : ما يبكيك؟ قالت : يريد أن يئد إبنتى هذه. فقال له : ما حملك على هذا؟ قال الرجل: الفقر. قال صعصعة : فأنى أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما يعيشون بألبانها، ولا تئد الصبية. قال : قد فعلت. فأعطاه صعصعة الناقتين، وجملا كان تحته فحلا، وقال فى نفسه : إن هذا لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها(٥).

وقد فخر بذلك الفرزدق فى عدة قصائد من شعره، ومنها قصيدته التى أولها :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى

متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

أجار بنات الوائدتين ومن يجر

على الفقر يعلم أنه غير مخفر(٥٦)

وفى هذه الأبيات إشارة بكرم صعصعة، فيذكر الفرزدق أن هناك غيثا فى السماء، وغيثا فى الأرض، فغيث السماء مطر، وغيث الأرض جده ــ أبوه ــ "صعصعة"، وأن جده خير الغيثين، فأنه لا يخلف إذا خلفت بروج السماء، وأنه غير ناقض للعهد كريم اليد يفتدى بماله ــ على الرغم من قلته ــ المؤودات.

وهكذا نجد أن الكرم عند فتيان العرب لم يكن سفها، أو إسرافا، أو تبذيرا وإنما هو البذل والعطاء والجود فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه، فى الظرف المناسب(٥٧) بل يمكن القول أنه ليس المال فى ذاته غرضا يهدفون إليه إذا لم يعين صاحبه على الكرم، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج وكسب الحمد والثناء، وإتقاء المذمه، وحماية للفتى من أن يصفه الناس بالبخل والشح. وفى هذا الصدد يقول زهير بن السكب مشيدا بالفتيان الكرام :

ونعم الحماة الكفاة العظيم

إذا غائظ الأمر لم يحلل

هم سبقوا يوم جرى الكرام

ذوى السبق فى الزمن الأول

وساقوا إلى المجد أهل الفعال

فطالوا بفعلهم الا طول(٥٨)

وبلغ من شده كرم فتيان العرب، ان بعضهم كان ينصب الجفان الواسعة فى عرض الطريق، ويملؤها طعاما طيبا ليأكل منها الناس، وكان عبد الله بن جدعان التيمى يفعل ذلك. وكان لعبد الله جفنة واسعة يأكل منها القائم والراكب لعظمها، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير، وسقط فيها يوما صبى فغرق ومات.(٥٩)

ومما لا ريب فيه أنه يطول بنا المقام إذا ما أردنا الاستشهاد بكل الأمثلة الدالة على الكرم عند العرب ذلك لأن كتب الأدب زاخرة بالأخبار والأشعار التى تدل على الكرم والعطاء، رغم الحاجة الشديدة. فقصة حاتم الطائى وذبح فرسه رغم حاجته، وحاجة أولاده الجياع.

وكذلك موقف الحطيئة ــ وهو ما هو من الجفوة والقسوة ــ حينما هم بذبح إبنه إكراما لضيوفه، وإمتثال الابن بل والاشارة على أبيه بذلك.

وعروة بن الورد الذى كان يضرب به المثل فى الجود والكرم بكل ما عنده حتى أنه يفرق طعامه على الأخرين ويكتفى هو بالماء، كل هذا يدل على كرم العرب وفتوتهم.

ذلك الكرم الذى يعد بمثابة قانون فرضته عليهم طبيعة الصحراء القاسية المجدبة ولكنه أصبح فضيلة من الفضائل السامية التى تصل بأصحابها إلى الفتوة الكاملة. ولم لا وهذا الكرم ليس سفها أو إسرافا أو تبذيرا، وإنما هو بذل وعطاء فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه.

وقد كان هؤلاء المحتاجون يسجلون هذا الكرم الذى يخلد أصحابه ويرفعهم إلى مرتبة السيادة والرئاسة، ويعلى منزلتهم. كذلك لم يسلم البخيل من المذمة، لأنه خرج على القانون الفطرى الذى فيه نجاتهم وحياتهم من قسوة الحياة، فإذا شح الأغنياء فمن يكون للفقراء من الأرامل واليتامى والمساكين الذين عضهم الدهر بأنيابه؟!

النجدة

إذا كان الكرم يعد سمة أساسية من سمات الفتوة عند العرب، وهذا الكرم قد فرضته الحياة فى الصحراء بقسوتها، ووحشتها، وجدبها.

فإنه مما لا ريب فيه هناك سمات أخرى، وخصال حميدة تحلى بها فتيان العرب إلى جانب الكرم، أهمها النجدة، التى تتمثل فى إغاثة الملهوف، وبذل العون، وحماية الضعيف وتلبية دعوة المكروبين. وإذا

بحثنا عن الدافع أو المحرك وراء هذه السمات أو الفضائل. لأمكن القول : أن غريزة البقاء، ومقاومة قسوة الحياة الصحراوية بجدبها، ووحشتها هى العامل الأول والمحرك الأساسى وراء هذه الففضائل.

فالنجدة فضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بخصال أو صفات أخرى حميدة من صفات الفتوة الأخرى، كالشجاعة، والكرم، والوفاء.... والنجدة سمة ترقى بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية الحقة، والفتوة الكاملة.

ذلك لأن من يتعرض لنصرة المظلوم وإنصافه ضد الظالم، وإغاثة الملهوف والمكروب، والانتقام من القوى للضعيف، ومد يد المساعدة للحق المفترى عليه، ينصب نفسه، بطلا أو بالأحرى ترفعه نجدته ـ للغير ـ إلى منزلة البطولة وتجعله بطلا من أبطال الخير ضد الشر، وفى هذا كرم وسخاء دونه كل كرم، وكل سخاء ونكران للذات دونه كل نكران(٦٠)

وكثيرا ما شبت الحروب والمعارك بين القبائل لأن جار القبيلة قد أهين أو أعتدى عليه، وخير مثال أمامنا فى هذا الصدد، حرب البسوس.

فقد كان لجساس بن مرة بن ذهل، خالة من بنى سعد تسمى البسوس جاورت بنى مرة، فنزلت على إبن أختها جساس، فصارت فى جواره وحمايته ومعها إبن لها، ولها ناقة. فدخلت الناقة ترعى مع إبل كليب الوائلى، الذى بغى وطغى وتجبر، وقد بلغ من سطوته وجبروته ألا يجبر أحد من بكر وتغلب إلا بأذنه فلما رأى كليب الناقة وسط إبله، أنكرها، فسأل عنها فأخبروه بأنها للبسوس جارة جساس فقال

كليب : أوقد بلغ من أمر إبن السعدية أن يجبر على بغير إذنـــى وأمـــر بقتل الناقة.

فلما نظرت إليها البسوس ووجدتها قد قتلت صرخت ويدها على رأسها وهى تصيح"واذلاه". فلما سمع جساس الخبر ثار وغضـــب لأن جارته وخالته اذلت، وقتل كليبا وكان هذا الأمر سببا فى حرب طاحنـــة ظلت مشتعلة أمدا طويلا، وقتل فيها خلق كثير(٦١).

وقد أعز العرب حلفاءهم والداخلين فى جوارهم، وكـــان حلـــف الفضول أكرم حلف وأشرفه فى العرب، وإن أول من تكلم به ودعا إليه "الزبير بن عبد المطلب "وكان سبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد قـــدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه، "العاصى بن وائل"، وكان ذا قـــدر بمكـــة وشرف، فحبس عنه حقه فأستعدى عليه الزبيرى القبائل : عبد الـــدار، ومخزوما، وعدى بن كعب.... فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائـــل، وإنتهروه، فلما رأى الزبيرى الشر قد أحاط به، صعد على جبل "أبـــى قبيس" وقريش فى انديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـــــه

ببطن مكة نائى الدار والنفـــــر

ومحرم أشعث لم يقضى عمرته

ياللرجل وبين الحجر والحجـــر

إن الحرام لمن تمت كرامتـــــه

ولا حرام لثوب الفاجر الغـــــدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، ودعا القبائل من قريش إلى حلف فأجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا، على

أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، ثم مشــوا إلى العاصى بن وائل، فأنتزعوا منه سلعة الزبيرى فدفعوها إليه.(٦٢)

وروى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : "لقد شهدت فى دار ــ عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت فى الاسلام لأجبت، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها"(٦٣).

بالإضافة إلى ما سبق فقد بلغ من منزلة الجار الحليــف لــدى بعض القبائل أنه كان يعد من الأهل، وكانوا يذهبون بالجوار إلى ما بعد الموت. كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين إستجار به، فقــال له : أتجيرنى من الأنس والجن؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية. قال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت(٦٤).

ومن مظاهر النجدة، وحماية الضعيف، وتلبية المكروبيــن دون تردد أو سؤال، فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم.

وما استحق عنترة هذه المكانة المرموقة التى وصل إليــها، إلا بهذه الفضيلة "النجدة" فهو يلبى دعوة من يناديه فى الحــرب، ويجيــب صرخة المستغيث ويدفع عنه الأعداء برمحه الأسمر الطويل، وســيفه الأبيض البتار.

ومكروب كشفت الكرب عنه
بضربه فيصل لما دعانــــى
فكأن إجابتى إياه أنــــــى
عطفت عليه خوار العنـــان
بأسمر من رماح الخطــر لان
وابيض صارم ذكر يمـــــان(٦٥)

ومن حماية الضعيف، فك العانى، الذى آسر فى الحرب، وقد يكون ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إنقاذه عنوة، أو عن طريق الفداء. فها هو أبو خراش الهزلى يترك إبنه رهينة فى سبيل إنقاذ أخاه عروة من الأسر.

فقد روى صاحب الأغانى أن عروة بن مرة، أخا أبى خراش وقع فى الأسر فلما دخلت الأشهر الحرم، مضى أبو خراش إلى القبيلة التى أسرت عروة، ومعه إبنه خراش، فنزل بسيد من ساداتهم، ولم يعرفه نفسه، ولكنه استضافه فأنزله وأحسن ضيافته وإكرامه.

فلما إطمئن إليه وأنس به، أخبره خبر أخيه، وسأله معاونته حتى يشتريه منهم، فوعده بذلك، وذهب إلى القوم مع ذلك السيد الكريم فسألهم فى الأسير فقال لهم : أشترية منكم. فقالوا : أما هذا فنعم. فلم يزل يساومهم حتى رضوا بما بذله لهم، فدفع أبو خراش إليهم إبنه خراشا رهينة وأطلق أخاه عروة ومضيا، حتى أخذا أبو خراش فكاك أخيه، وعاد به إلى القوم حتى أعطاهم إياه وأخذ ابنه(٦٦).

ومن مظاهر النجدة وحماية الضعيف، الدفاع عن المرأة، وهذا أول شروط الرجولة الحقة والفتوة التامة والدفاع عن المرأة ــ فضلا عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف ــ دفاع عن العرض والشرف، وهو أعظم ما يهتم به العربى.

إذ يروى أن من الأسباب التى أدت إلى حرب الفجار، أن شبابا من قريش وبنى كنانه، كانوا ذوى غرام، فرأوا إمرأة من بنى عامر، وهى جالسة بسوق عكاظ عليها برقع لها، وقد إلتف حولها شباب من العرب وهى تحدثهم فجاء الشباب من قريش وبنى كنانه، فأطافوا بها

وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فقام أحدهم، فجلس خلفها، وحل طرف ردائها وشده إلى فوق وهى لا تعلم... فلما قامت سقط عنها ردائها، فضحكوا وسخروا منها.... فنادت : يا آل عامر فثاروا وحملوا السلاح، وحملته كنانة، وإقتتلوا قتالا شديدا، ووقعت بينهم دماء، فتواسط حرب بن أمية وإحتمل دماء القوم، وأرض بنى عامر نتيجة لما حدث لصاحبتهم من سخرية وإستهزاء بها(٦٧)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الذى يدافع عن النساء والأعراض يسمى"حامى الذمار" وحماية الذمار خير ما يفخر به الفتى العربى ليصون عرضه ويحمى عقيلته(٦٨) إلا أن الحماية الحقيقية للمرأة، إنما تنبع من عفتها ومنعتها وفى هذا الصدد يقول علقمة بن عبدة بن النعمان، يصور هذه الخصال العظيمة :

ممنعة ما يستطاع كلامها

على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره

وترض إياب البعل حين يئوب(٦٩)

فهى إمرأة ممنعة عفيفة لا سبيل حتى إلى محادثتها، وليس ذلك لأن على بابها رقيب وإنما لأن العفة طبيعة فيها، وهى أيضا كريمة أصيلة لا تبوح بسر زوجها الغائب.

ولم تكن هذه أخلاق النساء دون الرجال، وإنما كان الرجال كذلك، صحيح أن العرب لم يكونوا كلهم على هذا النمط، وإنما الغالبية العظمى أو بالأحرى الطبيعة العربية فى فتوتها كانت هكذا تتحلى بالطهر والنقاء وما عداها فشاذ.

وفى هذا الصدد يقول حاتم الطائى مفتخرا بعفته وإحترامــه لحرمــات جاره :

وما ضر جارا يا إبنة القوم فاعلمى

يجاورنى ألا يكون له ستـــــــــر

بعينى عن جارات قومى غفلـــــــة

وفى السمع منى عن حديثهم وقــر(٧٠)

وهى هذا المعنى يقول عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

حتى يوارى جارتى مـــــــأواها

وهكذا نجد أن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هـــؤلاء الفتيان من مناعة طبيعية، وقهر للنفس، وإخضـــاع الغرائـــز لحكمـــة العقل، وفى ذلك فتوة ما بعدها فتوة، لأن ذلك يتطلب من الفتى شجاعة، وصلابة وقوة إرادة، وتضحية بنزوات، ورغبات فيها لـــذات عاجلـــة وسمو بهذه الغرائز إلى المجد والسؤدد والشرف.

ويبقى أمامنا أن نذكر إن النجدة وحدها على الرغم من كونـــها صفة طيبة، وخصلة حميدة، يتحلى بها فتيان العرب إلا أنه لابـــد مـــن إكتمالها وذلك بالالتزام بالوعد والوفاء بالعهد.

الوفاء بالـوعـد

إذا كان الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، وتلبية نداء المحتـــاج... كل هذه وغيرها تعد من الصفات الحميدة للفتيان، فإنه من أجمـــل مـــا يتحلى به الفتى العربى من صفات الوفاء بالوعد ذلك لأن الوفاء بالوعد

ليس قائما بذاته إنما هو يتصل إتصالا وثيقا بصفات عديدة أخرى مثـــل الكرم، والشجاعة، والنجدة.... إلى غير ذلك مما سبق لنا أن أوضحناه من سمات الفتيان.

وكثيرا ما يكون فى الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحــــة المـــرء الخاصة، أو منفعته الشخصية، فليس من الفضيلة أن يفى المرء بشـــئ فيـــه منفعة له، وفى إنجازه فائدة تعود عليه، بـــل أن الوفـــاء بـــالوعد يتطلب عـــادة أن يضحى المرء بوجهة نظره الخاصـــة، أو بمصلحتـــه الذاتية، فى سبيل ما سواه، بل قد يكلفه الوفاء بالوعد حياته نفسها.

ومن أغرب ما روى عن الإلتزام بكلمة الشرف، إلى حد يفـــوق الوفاء بالوعد تلك القصة التى رويت عن المنذر بن ماء السماء" حينمـــا مر به رجل من طئ يسمى "حنظلة" يوم بؤسه فأراد قتلـــه، فاســـتشفعه الرجل أن يطلق سراحه فقال له : لابد من ذلك ــ أى القتل ــ فاســـأل حاجة اقضيها لك.

فقال : تؤجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى، وأحكم من أمرهم مـــا أريد، ثم أصير إليك، فأنفذ فى حكمك.

فقال المنذر : ومن يكفل بك حتى تعود؟ فنظر الرجل فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو، فأنشد يقول :

يا شريك يا بن عمـــرو

ما من الموت محالـــه

يا شريك يا بن عمـــرو

يا أخا من لا أخا لـــــه

يا أخا شيبان فك اليـــوم

رهنا قد أتى لـــــــه(٧١)

فوثب شريك بن عمرو وقال : أبيت اللعن،يدى بيده ودمى بدمه، إن لم يعد إلى أجله. فأطلقه المنذر... فلما كان من العام التالى جلس فى مجلسه يوم بؤسه ينتظر مجئ حنظلة، فأبطى عليه، فأمر بشريك بن عمرو فقرب ليقتله.

فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم، فتأملوه، فإذا هو حنظلة، قد وفى بوعده وحضر إليهم، فلما رأه المنذر تعجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك العادة السيئة(٧٢)

وفى هذه القصة نتساءل من أكثر وفاء وإلتزاما بالوعد، هل هو شريك بن عمرو أم حنظلة الطائى؟

لا جدال أننا لا نستطيع أن نفاضل بينهما، إذ من يستطيع أن يتحمل دم شخص آخر ويطلق سراحه، وهو يعلم علم اليقين، أنه إذا لم يرجع سيلقى حتفه ويقتل بدلا منه.

ومن بعد أن يطلق سراحه، ويصبح حرا بعيدا عن الخطر والهلاك، يلتزم بوعده الذى قطعه على نفسه، ويوفى بوعده، ويعود ليقدم نفسه للقتل حتى لا يعرض من كفله للموت والهلاك.

إلا أننا نستخلص من هذه القصة درس من الوفاء، وكلمة الشرف يجب علينا أن نلزم به أنفسنا فى زمان يتنصل فيه المرء من ذويه، ولا يلتزم إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية والمصلحة الذاتية.

وإذا أعطى المرء وعدا، وكان رجلا جزلا كامل الرجولة، كما كان فتيان العرب فليس له أن يرجع فيه، أو يحيد عنه، أو يناقشه مرة أخرى، بل إن صح القول قانون الفتوة يحكم عليه أن يمضى فى إنجازه، ولو ناقض فائدته وعاد عليه بالضر(٧٣) كما هو الأمر فى

موقف عبد الله بن جدعان من أسلحة هوازن. والقصة كمـــا يرويـــها صاحب الأغاني تقول :

كانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعـــان، حتى يفرغوا من سوقهم وحجهم، ثم يرد عليهم بعد ذلك. فجاء القـــوم وأخبروه خبر البراضى وقتله عروة الرجال الكلبى وأخبروا حرب بـــن أمية ــ إذ أن البراضى كان حليفا لحرب بن أمية وفى جواره ــ فذهب حرب إلى عبد الله بن جدعان وقال له :

إحتبس قبلك سلاح هوازن. فقال له إبن جدعان : أبـــا لغـــدر تأمرنى يا حرب؟ والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت بـــه ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئا، ولكـــن لكـــم مائـــه درع، ومائة رمح، ومائة سيف فى مالى تستعينون بها، ثم نادى ابن جدعـــان فى الناس : من كان له قبلى سلاح فليـــأت، وليـــأخذه، فـــأخذ النـــاس أسلحتهم(٧٤).

وإذا كان هذا موقف إبن جدعان يأبى الغـــدر ويلـــتزم بـــالوعد ويوفى بالعهد، فأنه قد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذيـــن يغـــدرون، وينتقضون المواثيق، ويوفون بالعهود أن يشهروا بهم. يقول الشاعر :

غدرت بأمر أنت كنت إجتذبتنـــــا

عليه وشر الشيمة الغدر بالعهـــــد

فقد يترك الغدر الفتى وطعامـــــه

إذا هو أمسى حلبه من دم الغصـــر(٧٥)

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه إلى ذروة الوفاء، مثلما حدث مع السموأل بن عريض بن عاديـــا،

الذى يضرب به المثل فى الوفاء وأمرئ القيس الكندى، الذى استودعه دروعا له ثم مات، فأراد ملك كنده أن سيتولى على هذه الأدرع ـ فأبى السموأل أن يسلمها إلا إلى ورثة أمرئ القيس، فغزاه الملك وحاصره فتحصن منه السموأل ولكن الملك استطاع أن يأسر إبن السموأل، ثم طلب الملك السموأل فأشرف عليه من الحصن. ثم قال للسموأل : أتعرف هذا؟ قال : نعم، هذا إبنى. قال : أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟ قال : شأنك به، فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى، فضرب الملك وسط الغلام، فقتله وإنصرف عنه، فقال السموأل فى ذلك :

وفيت بأدرع الكندى إنى

إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوما بألا

تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا

وماء كلما شئت استقيت(٧٦)

وهكذا نصل إلى أن الفتوة قبل الإسلام تمثلت فيها بعض الصفات الحميدة كالكرم والنجدة، والوفاء بالوعد... وسائر الخصال الطيبة التى تعكس الرجولة العربية.

هذه الخصال أو الصفات التى كان مصدرها غريزة البقاء، ومقاومة قسوة الحياة الصحراوية بوحشتها وجدبها. فالعرب يعيشون فى صحراء قاحلة يندر فيها الزرع والماء وكل منهم معرض للهلاك إذا هو ضل الطريق فى سفر أو ترحال لذلك كان لابد من توافر مثل هذه الخصال.

وكان العرب يهدفون من وراء فتوتهم إلى أهواء ذاتية ومصالح شخصية كالسيادة والرياسة فى القبيلة، وقد تمتد هذه الغاية لتشمل القبيلة كلها إذ كثيرا ما يعود تصرف الفتى بالفخر والسيادة للقبيلة نفسها علـــى سائر القبائل.

هذا بالإضافة إلى أن الفتوة قبل الإسلام إلى جانب هذه الخصال الحميدة قد إحتوت على الكثير من الخصال الغير محمودة والتى ألغاها الإلام كشرب الخمر، وعقد مجالس اللهو والغناء.

ولهذا يجدر بنا أن نلقى نظرة على الفتوة فى الإسلام لنرى كيف هذب الإسلام هذه الفتوة الجاهلية وصبها فى قالب جديـــد يقـــوم علـــى الإيمان ومكارم الأخلاق، والإعراض عن اللهو والمجون والإقبال على الطاعة والزهد والإخلاص.

هوامش
الفصل الأول

(١) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٤،١٥

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٦٣، ٦٤

(٣) المرجع السابق : ص١١٦

(٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص١١٩

(٥) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص١٤

(٦) القاموس المحيط (مادة صعلك).

(٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١٨

(٨) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص١٩

(٩) أبى تمام : ديوان الحماسة جـ٢ ص٩٣

(١٠) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١١٥

(١١) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١١٥، ١١٦

(١٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٣٤٩

(١٣) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٧٦

(١٤) الأصفهانى : الأغانى جـ١٤ ص١٥٤

(١٥) ابن القيم الجوزية : الفروسية ص١٧٥ دار التراث العربى

(١٦) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٢٩ دار نهضة مصر ٦٦

(١٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٦٧ الهيئة ١٩٨٧

(١٨) الاصفهانى : الأغانى جـ ١٤ ص١٤٤

(١٩) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٧٥ الهيئة ١٩٨٧

(٢٠) ابن القيم : الفروسية ص١٧٧، ١٧٨ دار التراث العربى

(٢١) ابن خلدون : المقدمة ص١١١ دار التحرير ١٩٦٦

(٢٢) المرجع السابق : ص١١٢

(٢٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٣٦ دار النهضة ١٩٦٦

(٢٤) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٤٨ الهيئة ١٩٨٧

(٢٥) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٤١ دار النهضة ٦٦

(٢٦) الاصفهانى : الأغانى جـ٢٠ ص١٧

(٢٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥١ الهيئة سنة ١٩٨٧

(٢٨) مجلة كلية الأداب : ص٢٩ المجلد الخامس والثلاثون ١٩٨٧

(٢٩) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص ٢٠٨

(٣٠) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٢ الهيئة ١٩٨٧

(٣١) ابن القيم : الفروسية ص١٧ دار التراث العربى

(٣٢) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٦ الهيئة ١٩٨٧

(٣٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٤٤

(٣٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص٢٦

(٣٥) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص١٩٠

(٣٦) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٦

(٣٧) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٣٤٥

(٣٨) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢١ ص١٥٤

(٣٩) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٨

(٤٠) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٦

(٤١) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢١ ص١٧٥، ١٧٦

(٤٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٠

(٤٣) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص١٩٠

(٤٤) المرجع السابق ص١٨٨

(٤٥) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٠

(٤٦) المرجع السابق ص٤٩

(٤٧) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٩٥

(٤٨) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٩

(٤٩) د. محمد محمد الكومى : المروة فى الشعر الجاهلى ص٩٥

(٥٠) جمال الدين محمد بن نباته المصرى : سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص٧٣

(٥١) المرجع السابق ص٧٣، ٧٤

(٥٢) ابن نباته المصرى : سرح العيون شرح رساله ابن زيدون ص٧٥

(٥٣) الأصفهانى : الأغانى ج، ٢٢ ص٢٨١، ٢٢٨

(٥٤) المرجع السابق ص٢٧٥

(٥٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٢٧٦، ٢٧٧

(٥٦) المرجع السابق ص٢٧٨

(٥٧) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٦٢

(٥٨) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٢٧١

(٥٩) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب جـ١ ص٨٩ تحقيق محمد بهجت الأثيرى مطبعة مصر ١٣٤٢هـ

(٦٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٠، ١٢١

(٦١) ابن نباته المصرى : سرح العيون شرح رسالة ابن خلدون ص٥٩، ٦٠ الطبعة الرابعة سنة ١٣٢١هـ.

(٦٢) ابن هشام السيرة النبوية جـ ١ ص١٢٢، ١٢٣ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤.

(٦٣) المرجع السابق ص١٢٢

(٦٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٤

(٦٥) محمد سيد كيلانى : مختار الشعر الجاهلى ص٤٠ مطبعة الباب الحلبى بمصر سنة ١٩٥٩

(٦٦) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٢١٢

(٦٧) الاصفهانى : الأغانى ص٢٢ ص٥٥، ٥٦

(٦٨) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٩

(٦٩) د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى ص١٢٨ طبعة ٨٣

(٧٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٣٠ دار النهضة ١٩٦٦

(٧١) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢٢ ص٨٩، ٩٠

(٧٢) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٩٠

(٧٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١١٥ ـ دار النهضة ١٩٦٦

(٧٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٥٩، ٦٠

(٧٥) المرجع السابق ص١٩٠

(٧٦) المرجع السابق ص١١٩

الفصل الثانى
الفتوة فى الإسلام

الفتوة فى كتاب الله

إذا ما تأملنا كتاب الله عز وجل، نجد أن لفظ الفتوة قد ورد فى أكثر من موضع كما أنه جاء وصفاً لبعض أنبياء الله. قال تعالى : "قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم"(١).

أى، قال الذين سمعوا إبراهيم ــ عليه السلام ــ يعيب الأصنام وعبادتها، ويدعو إلى الله الواحد الأحد : إنا سمعنا فتى يذكر ألهتنا بسوء، وإسم هذا الفتى إبراهيم، فلم يذكر أحد ألهتنا بسوء غيره، ولم يستهزئ بها وينكر الوهيتها سواه، فيغلب على ظننا أن يكون هو الذى فعل بها ما نرى من تحطيم وتكسير(٢).

وفى هذه الأية الكريمة نجد أن الحق تبارك وتعالى أطلق على ألسنة عبدة الأصنام، فتوة إبراهيم، وتتجلى هذه الفتوة فى أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ قام فى الله حق القيام، وأنه باع نفسه فى حق أحدية خالقة، لا فى حق خالقه لأن الشريك ما ينفى وجود الخالق، وإنما يتوجه إلى نفى الأحدية.(٣)

وإذا قلنا أن إيواء الضيف وإكرامه من سمات الفتوة، فقد كان خليل الله كريماً مضيافاً لا يتغدى ولا يتعش إلا مع ضيف، وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفاً. وقد شهد له الحق تعالى بهذه الصفة ــ الكرم ــ فى قوله تعالى : "هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ

دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجـــاء بعجل سمين".(٤)

ومعنى قوله : المكرمين، قيل لقيام إبراهيم ــ عليه الســـلام ــ بخدمتهم. وقيل : إكرام الضيف بطلاقة الوجه، والإستبشار بوفودهـــم. وقيل : لم ابراهيم لهم، وما إعتذر إليهم ــ وهذا هو إكرام الضيـــف ــ حتى لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيـــف إلـــى تحملـــها. ويقال : سماهم المكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كريـــم. ويقـــال ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال : المكرمين عند الله.(٥)

ومعنى قوله : فراغ، كذلك يكون روغان الكرام، خفية حتـــى لا يسبب لأيافه الحرج(٦).

كذلك كان إبراهيم ــ عليه السلام ــ معلماً للخير، وكان جمـــاع خير أمة بأكملها فى العبادة، والفضائل، والآداب، قانتاً لله حنيفاً. وكان عليه السلام ــ عطوفاً رؤوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه. وقد شهد له الحق تعالى بالوفاء : فقال تعالى :"وإبراهيم الذى وفى"(٧)

وإذا قلنا أن إمتلاك النفس عند الغضب والسيطرة عليها وكبـــح جماحها، تعد من صفات الفتى، فقد تحلى إبراهيم ــ عليـــه الســـلام ــ بذلك بالإضافة إلى خصال أخرى حميدة كانت هى الأساس الذى إستقى منه الفتيان فتوتهم، منها : البكاء وكثرة التأوه عند ذكر الذنوب، والإقبال على الله بقلبه وكل جوارحه حتى يكون دوماً فى طاعته سبحانه. وفى هذا المعنى يقول عز وجل : "إن إبراهيم لحليم أواه منيب".(٨)

وتتجلى فتوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ فى إمتثاله لأوامر الله عز وجل وتبليغ رسالته، وتحمل الأهوال والصعاب فى سبيل إعلاء كلمة الله. إلى الحد الذى دفع أعداء الله إلى أن يقذفوه فى النار، ولم يحاول إبراهيم أن يهرب من أعداء الله، واثقاً أن الحق تبارك وتعالى الذى بعثه برسالته لن يخذله فكانت النار برداً وسلاماً عليه. قال تعالى : "قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم"(٩).

وإذا ما إنتقلنا إلى موضع آخر من كتاب الله ذكر فيه لفظ الفتى نجد ذلك فى قوله تعالى :"وقال نسوة فى المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين"(١٠)

وتتضح فتوة يوسف ــ عليه السلام ــ فى أنه أثر لحوق المشقة فى الله تعالى على لذة نفسه، وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

"قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين".(١١)

وهنا يمكن القول : أن يوسف ــ عليه السلام ــ لو تمنى العافية، بدل ما كان يدعى إليه لعله كان يعافى، ولكنه لما قال : "السجن أحب إلى مما يدوننى إليه" طولب بصدق ما قال. هذا وقد أيقن يوسف أن ما هو فيه إنما إبتلاء لا يصرفه عنه إلا الله تعالى، لذلك نطق من عين التوحيد حيث قال : "وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن". فقد علم عليه السلام ــ إن نجاته فى أن يصرف سبحانه البلاء عنه.(١٢)

وإذا ما نظرنا إلى الخصال الحميدة التى تحلى بها يوسف ــ عليه السلام ــ نجد أنها ثمار خير قد أينعت من شجرة الأخلاق النبوية المباركة، فكانت دليلاً على فتوته.

وأول ما يقابلنا من هذه الصفات الطيبة، والخصال الحميدة، التى يجب على الفتى أن يتحلى بها نجد، العفة والأمانة، فقد كـــان يوســف شاب، فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات، وعلى الرغم من ذلك فقـــد إستمسك بدينه، لأنه نشأ على تقوى الله، وحسن الخلق(١٣).

وتتمثل هذه العفة والأمانة عند يوسف أن إمرأة العزيز عندمـــا هاج غرامها إعتزمت على قضاء ما فى نفسها من الصبابة، فدعته إلى نفسها وغلقت الأبواب، نجد أن يوسف ــ عليه السلام ــ تمسك بعفتـــه وأمانته، ورفض ما تدعوه إليه ــ إمرأة العزيز ــ وقال لها : إن ربـــى ــ زوجك العزيز ــ أحسن مثواى، فلا يصح لى أن أخونه فى زوجتـــه وأدنس فراشه، وإنه أكرمنى وإئتمننى على بيته، فإن خنته فى أهله، فأنا ظـــالم ولا يفلـــح الظـــالمون. وقـــال تعـــالى : إخبـــارا عـــن هـــذه الحادثة:"وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقـــالت، هيت لك قال : معـــاذ الله إنـــه ربـــى أحســـن مثـــواى إنـــه لا يفلـــح الظالمون"(١٤).

كذلك يعتبر الصبر من أبرز الصفات فى فتوة نبى الله يوســـف. وإن من صبر يوسف ما يأتى :

أولاً : صبر على إيذاء اخوته له، وتجريده من ثوبه، والقائه فى الجب بقصد إهلاكه. وقد أخبرنا الحق تعالى بهذا الموقف من جـــانب إخوة يوسف فى قوله تعالى : "اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منـــهم لا تقتلـــوا يوسف وألقوه فى غيبت الجب"(١٥)

ثانياً : صبر على استرقاته وبيعه فى السوق. قـــال تعـــالى : "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين".(١٦)

ثالثا: صبر على الشهوة، وقد هيئت له فى طائفة من المغريات تحف به من كل جانب إلا أنه تغلب بعون الله وقدرته على كـــل هـــذه المغريات، مفضلاً دخول السجن حتى لا يستجيب إلى الشهوة ويكـــون من الجاهلين.

رابعاً : الصبر على الحبس والسجن، عندما أحاطت المغريـــات بيوسف من كل جانب، أثر دخول السجن خوفاً من هذه الاغـــراءات، إذ أن السجن فى هذه الحالة أحب إلى يوسف مما يدعونه إليه. ليس هـــذا فحسب، إنما رفض يوسف الخروج من السجن بعد تأويل رؤيا الملك ما لم تظهر الحقيقة، ويعلم الملك حقيقة موقفه من إمرأة العزيز، وأنه دخل السجن ظلماً وكيدا من جانبها.

قال تعالى : "وقال الملك أئتونى به فلما جاءه الرســـول قـــال : ارجع إلى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعـــن أيديـــهن إن ربـــى بكيدهن عليم".(١٧)

أمر أخر فى رفض يوسف الخروج من السجن، وذلـــك ليثبـــت براءته، فلا تصح للملك المنة على يوسف فى إخراجه من السجن، بـــل المنة لله وحده، فقصد يوسف بذلك براءة ساحته، إذ لو بقى الاحتمـــــال لقدح فى عدالته، وهو رسول من عند الله عز وجل، فلابـــد لأمتـــه ــ المؤمنين بدعوته ــ فى طريق إنقيادهم له من ثبوت عدالتـــه وبراءتـــه عندهم.

أمر أخر إن يوسف ــ عليه السلام ــ طلب أن تكون البراءة فى غيبته لكونها أكثر تنزيها له، لأنه لو حضر، ربما قيل : ما ذكروه إلا حياء منه، ومن كمال الرجوله (الفتوة) أن يقف مع ما تمسك عليه فى كل ما لم يؤمر بفعله حتى يأتيه أمر الله فهناك يكون بحسب ما يؤمر به(١٨).

وإذا كان العفو ــ وخاصة عند المقدرة ــ يعد من السمات أو الخصال الحميدة التى يتحلى بها الفتى فإننا نجد هذه السمة واضحة متميزة فى موقف نبى الله يوسف ــ عليه السلام ــ مع إخوته، فحينما خرج من السجن ومكن الله له فى أرض مصر، وجعله على خزائنها، جاء اخوته إلى مصر يكتالون بعد ما حل بهم الجدب والقحط. نجد أن يوسف ــ عليه السلام ــ لم يعاملهم مثلما عاملوه، ولم يقابل شرهم بشر مثله، وإنما دعا لهم بالمغفرة والرحمة. وقد أخبر الحق سبحانه عن هذا الموقف فى قوله تعالى : "قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".(١٩)

كذلك ورد لفظ الفتى فى كتاب الله عز وجل وصفاً لأهل الكهف. وذلك فى قوله تعالى : "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية أمنوا بربهم وزدناهم هدى".(٢٠)

وفى قوله تعالى : "إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا أتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشدا".(٢١)

وإذا ما نظرنا إلى الأية الأولى نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف الفتية بالإيمان فى قوله تعالى : "إنهم فتية آمنوا بربهم" ويفسر القشيرى هذه الأية بقوله : يقال : انهم فتية لأنهم أمنوا ــ على الوهلة

ـــ بربهم، أمنوا من غير مهلة، لما أتتهم دواعى الوصلة. ويقال : فتية، لأنهم قاموا لله، ما إستقروا حتى وصلوا إلى الله.(٢٢)

ويقال : أن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق سبحانه فى صفة أصحاب الكهف: "وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود".(٢٣) فهم بشواهد الفرق فى ظاهرهم، ولكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به فى سرائرهم، يجرى عليهم أحوالهم وهم غير متكلفين، بل هم يثبتون ـــ وهم خمود عما هم به ـــ ان تصرفاتهم القائم بها عنهم سواهم وكذلك فى نطقهم.(٢٤)

وإذا ما إنتقلنا إلى الآية الثانية نجد أن الحق تبارك وتعالى أوى الفتية إلى الكهف بظاهرهم، وهم فى الباطن فهو مقليهم فى ظل اقباله وعنايته ثم أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الاحوال وهم غائبون عن شواهدهم.

هذا وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن إبتداء أمرهم أنهم دعوا الله أن يأتيهم من لدنه رحمة، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا. أى أنهم أخذوا فى التبرى من حولهم وقوتهم، ورجعوا إلى الله بصدق فاستجاب لهم، وبوأهم فى كنف الإيواء مكانا حسنا.(٢٥)

بالإضافة إلى هذا فقد ورد لفظ الفتى فى كتاب الله عز وجل بمعنى التابع قال تعالى : "وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح مجمع البحرين أو أمضى حقباً".(٢٦) وفى قوله تعالى : "، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غذائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً".(٢٧)

كذلك ورد لفظ الفتى فى سورة يوسف بنفس المعنى ـــ التابع ـــ فى قول الله عز وجل : "وقال لفتيانه إجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا إنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"(٢٨).

وهنا تجدر الاشارة إلى أن الله تعالى لم يرضى أن يسمى التابع، أو الرقيق المملوك عبد فلان، وكره العبودية تضاف لغيره سبحانه فأختار للتابع الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً لفظاً كريماً يدل على مجموع صفات حميدة "وهو الفتى". وكذلك الأمر بالنسبة للأمة المملوكة.

إذ جاء فى الحديث أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : "لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى".

فكأن الحق سبحانه وتعالى إختار خير الألفاظ الدالة على الحرية والصفات الحميدة فدل بها على الرق طلباً لحسن معاملة الرقيق.

سيد الفتيان

قد يكون وصفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيد الفتيان تطاولاً على مقام النبوة الكريم، إلا أن حجتنا فى وصفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذلك ما وجدناه فى كتاب الله عز وجل من وصف لبعض الأنبياء بلفظ "فتى" كما هو الحال مع إبراهيم ويوسف عليهما السلام.

كذلك كان رسول الله قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مثالاً كاملاً للرجولة الحقة، والفتوة الكاملة وتمثلت فى شخصته ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخصال الحميدة، والصفات العظيمة فكانت فى مجموعها الأخلاق النبيلة.

هذا وقد أجمعت لنا السيدة خديجة هذه الصفات، والخصال الحميدة، التى هى بحق صفات الفتيان عندما جاءها مخبراً بنزول الوحى عليه إذ قالت : "أبشر يا ابن العم وأثبت، فوالذى نفس خديجة

بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق".(٢٩)

وإذا ما نظرنا إلى وصف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما وصفه على بن أبى طالب نجد وصفه من الناحية الخلقية بالقوة وذلك فى قوله : جليل المشاش والكتد.... ششن الكفين والقدمين.....أى أن عظام رؤس المفاصل وخاصة ما بين الكتفين فيهم جلال وقوة، غليظ الكفين والقدمين دليلاً على قوتهما. ووصفه من الناحية الخُلقية بما تتضمنه الفتوة المعنوية من صفات وذلك فى قوله : "أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رأه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه(٣٠) صلى الله عليه وسلم.

وإذا ما تحدثنا عن فتوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نجد أن فتوته ما هى إلا جهاد فى سبيل الله، وإعلاء كلمة ــ لا إله إلا الله محمد رسول الله فى مجتمع ساد فيه الكفر، والفسق، والفجور.... وما أصدق ما وصف جعفر بن أبى طالب لأحوال قومه قبل بعثة رسول الله، عندما سأله النجاشى عن السبب الذى دعاهم إلى الدخول فى الإسلام إذ قال : "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه.... فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات".(٣١)

وهنا نجد أن هذه الفقرة تضمنت وصفاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بصفات حميدة أهمها، الصدق، والأمانة، والعفة. كما أن هذه الفقرة أوضحت أن الدعوة الاسلامية فى حقيقتها إنما هى تدعو إلى مكارم الأخلاق.

وقد تطلبت هذه الدعوة جهاداً طويلاً بالحجة تارة، وبالقوة تارة أخرى، مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء عليها فى مهدها، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف، ولكن لاخضاع الكفار، وكف أذاهم عن الدين الجديد.(٣٢)

وإذا قلنا أن الفتوة بمعناها المادى تتمثل فى القوة، والغلبة، والبطش وما تتطلبه هذه القوة من عدة وعداد مثل الخيل والسلاح.

وتتمثل الفتوة فى معناها المعنوى فى مجموعة الخصال الحميدة التى تكون فى مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وثمارها، مثل الكرم، والوفاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والزهد.... فمما لا ريب فيه أنه قد إكتملت هذه الفتوة سواء فى جانبها المادى أو الجانب المعنوى فى شخصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أولا : القوى المادية للفتوة :

لا جدال أن الدين الاسلامى دعا إلى القوة فى كثير من آيات الله مثل قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".(٣٣)

وإذا كانت الفتوة فى كثير من الأحيان مقترنة بالشجاعة ومكملة لها لذا نريد هنا أن نتعرف على شجاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث مصادرها ومظاهرها والغاية منها.

الشجاعة :

لقد نشأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيئة صحراوية تشيد بالشجاع الصنديد، وتندد بالجبن والجبناء، فكانت هذه النشأة الأولى مصدراً من مصادر شجاعته، صلى الله عليه وسلم.

فضلاً عن أن كثيراً من أيات كتاب الله تدعو إلى الشجاعة، وتحض عليها، وتبشر الفتيان الشجعان بالخير الكثير، والمغفرة والرحمة، والفوز العظيم.

وهكذا نجد أن المصدر الأساسى لشجاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يتمثل فى تنفيذ أوامر الله عز وجل. قال تعالى : "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".(٣٤)

وقال تعالى : "إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا فى

التوارة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله؟ فأستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم".(٣٥)

وإذا كان الإسلام قد أشاد بالشجاعة، وحض عليها، فإنه بالتالى قد نهى عن الجبن والفرار من المعركة أمام الأعداء. قال تعالى : "يا أيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يوليهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير".(٣٦)

أما عن مظاهر شجاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنها كثيرة متعددة يطول بنا المقام إذا أردنا أن نعددها ونحصيها، ولكننا نكتفى بأن نستقى منها بعض الأمثلة الدالة على شجاعة الرأى وشجاعة الحرب.

لاريب أن شجاعة الرأى تعد دليلاً على عقيدة راسخة، وإيمان قوى لا يلين أو يلتوى أمام المغريات. فها هو عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً فى قومه ـ يحاور رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محاولاً أن يبعده عن دعوته قائلاً : يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فأسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد.أسمع. قال : إن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك،

طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.... حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم. قال : فأسمع منى. قال : افعل، فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت أياته قرآنا عربياً لقوم يعملون. بشيراً ونذيراً. فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه".(٣٧).... ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليه، وعتبة منصت، ثم إنتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى السجدة منها، فسجد... ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.(٣٨)

ما أروعها من شجاعة فى الرأى، تلك التى مصدرها كلمات الحق تبارك وتعالى فى وجه طواغيت الكفر والفساد. وإذا ما إنتقلنا إلى موقف آخر من شجاعة الرأى عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجدنا ذلك واضحاً في موقفه مع عمه أبو طالب عندما ضاقت قريش بدعوته إلى الاسلام وتسفيه أحلامها، وعيب الهتها، فأرسلت وفداً إلى أبى طالب يتوعده بأن يكف رسول الله عن دعوته أو تكون حرباً بينهما حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه. فبعث إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : يابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا، وكذا، الذى كانوا قالوا له.... فأبقى على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ــ يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته.... ثم إستعبر رسول الله، فبكى ثم قام.

وعندما ما رأى أبو طالب هذه الشجاعة فى الرأى من جانب رسول الله، وثباته على عقيدته دفاعاً عن المبدأ الذى أمن به، ناداه، فقال : أقبل يا إبن أخى..... فأقبل عليه رسول الله..... فقال : إذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبداً.(٣٩)

أما شجاعته ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحربية فى ميدان القتال، فقد تجلت منذ مطلع شبابه إذ تروى كتب السيرة، أنه عندما هاجت حرب الفجار شهد رسول الله بعض وقائعها إذ أخرجه أعمامه معهم وفى هذا الصدد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامى "أى أرد عنهم نبل عدوهم، إذا رموهم بها".(٤٠)

ثم أنه بعد النبوة كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يشارك فى المواقع ويقدم إقدام الأبطال، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع، ويتعرض لما يتعرض له جنوده، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية إعتماداً على أنه النبى، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش ولو أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب. أو ملام، ولو أنه أثر هذا المسلك لرضى المسلمين به مرضاة خالصة، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم، ويشترون سلامته بازواحهم.(٤١)

---

* يذكر ابن اسحاق أنه عندما هاجت حرب الفجار كان رسول الله ــ ابن عشرين سنه

وعن هذه الشجاعة يحدثنا على بن أبى طالب قائلاً : إذا إشتد البأس، وأحمرت الحدق، إتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنى يوم بدر، ونحن برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.(٤٢)

وفى غزوة أحد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يؤثر البقاء فى المدينة دون الخروج منها، فأشار على أصحابه قائلا: "إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان البعض يوافق رسول الله على ذلك، يرى رأيه فى ألا يخرج إليهم وكان رسول الله يكره الخروج. ولكن جماعة من الصحابة، ممن كان فاته بدر، أثروا الخروج وقالوا لرسول الله : أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا.... فلم يزالوا برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يطلبون منه الخروج..... حتى دخل بيته، ولبس لأمته، وتقلد سيفه، ثم خرج عليهم..... وقد ندم الناس، وقالوا لرسول الله : إستكرهناك، ولم يكن لنا ذلك. فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل : فخرج رسول الله فى ألف من أصحابه.(٤٣)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى رفضه أن يستجيب لدعوة البقاء، بعد أن أعد عدته، ولبس لأمته، وإصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله، فإنه بهذا الاصرار أذكى شجاعة الصحابة جميعاً من كانوا يؤثرون الخروج، ومن كانوا يؤثرون البقاء، وخرج بهم يقودهم إلى لقاء الأعداء.

وتأكيداً لقول على بن أبى طالب " ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو..." نجد أنه فى غزوة أحد كسرت رباعيته – عليه الصلاة والسلام – وشج فى وجهه وجرحت شفته، وسال دمه على وجهه فكان يمسح الدم وهو يقول : "كيف يفلح قوم، خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم".(٤٤)

بالإضافة إلى هذا وقع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى حفرة من الحفر التى حفرها أعداء الله ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى إستوى قائماً.(٤٥)

وفى سنة ثمان بعد الفتح خرج رسول الله للقاء هوازن وثقيف وغيرهم فى غزوة حنين. فلما إقتربوا من وادى حنين إنحدروا فى متسع منحدر، وفى عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم إلى الوادى، فكمنوا فى شعابه ومضايقه فشدوا على المسلمين، فأنهزموا راجعين إلا قليلاً منهم لا يلوى أحد على أحد.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم – إنحاز ذات اليمين وكان على بغلته البيضاء، وكان النبى ينادى : "أنا النبى لا كذب، أنا إبن عبد المطلب، أيها الناس هلموا إلىّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله".... ولكنهم شغلوا باضطرابهم، وحملت الابل بعضها على بعض، فأنطلق الناس إلا نفرا من الصحابة (المهاجرين والانصار) ثبتوا مع رسول الله، فقال الرسوا : يا عباس، اصرخ يا معشر الانصار: يا معشر أصحاب السمرة. فأجابوا : لبيك، لبيك حتى إذا إجتمع منهم مائة إستقبلوا الناس، فأقتتلوا، وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى ركائبه. فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال : الأن حمى الوطيس.(٤٦)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثباته أثناء المعركة عندما دارت الدائرة على المسلمين، وتفرقوا إلا أنه بشجاعته وحكمته ـ عليه الصلاة والسلام ـ إستطاع أن ينظم صفوف المسلمين مرة أخرى،ويكر على العدو فى معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار المسلمين.

وهكذا نكون قد إستعرضنا بعض النماذج الدالة على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب، إلا أنه إحقاقا للحق نقول : إن ما أخذناه من شجاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كما يأخذ المخيط من المحيط.

وإذا ما تساءلنا عن الغاية من شجاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمكن القول : أنه لم تكن الشجاعة التى إتصف بها رسول الله، والتى حرض عليها وأقرها وإمتدحها، شجاعة القوى المقدام، المدل بقوته، المفاخر بها بين الناس، ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير الحق، بل كانت شجاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشجاعة المثلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله. وإعلاء كلمته، والزود عن محارمه، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها.(٤٧)

فقد كانت الغاية من شجاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هى أنبل غاية وأشرف غاية، وأسمى غاية، إذ أن شجاعة رسول الله كان الهدف منها أن تكون كلمة الله هى العليا، والدفاع عن التوحيد الخالص، وحماية الاسلام والمسلمين من عدوان المشركين، وتحرير الناس من أغلال الوثنية، ومفاسد الأخلاق، لتحل محلها أسمى عقيدة، وأصلح نظام يهدف إلى خدمة الانسانية جمعاء فى مختلف نواحى الحياة.

السلام :

إذا قلنا أن شجاعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمثلت في شجاعة الرأى وشجاعة الحرب، ووجدنا أن شجاعة الرأى عبر عنها بالحكمة والموعظة الحسنة، من خلال كلمات الله عز وجل التى أنزلت على رسوله الكريم ليثبت فؤاده.

فإن شجاعة الحرب لها متطلبات أخرى تعبر عنها، مثل إستخدام السلاح، وركوب الخيل وقد ثبت لدينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إستخدم كافة انواع الأسلحة ـ المتعارف عليها ـ مثل الحربة والسيف، والرمح، الرمى بالنبال..... كما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يلبس الدرع والترس أثناء المعارك والغزوات.

وإذا ما نظرنا إلى استخدام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحربة ـ وهى رمح قصير ـ وطعنه بها، فتروى لنا كتب السيرة، مثل : مغازى موسى بن عقبة، وإبن اسحاق، والأموى، وإبن هشام... وغيرها، أنه لما كان يوم أحد وأسند رسول الله إلى الجبل أدركه أبى بن خلف، وهو يقول : أين محمد؟ لانجوت إن نجا وكان أبى بن خلف يلقى رسول الله بمكة فيقول : يا محمد، إن عندى العود ـ فرساله ـ أعلفه كل يوما فرقاً من ذرة أقتلك عليها. فيرد عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : بل أنا أقتلك إن شاء الله.

فلما أدرك أبى بن خلف رسول الله إعترض له رجال من الصحابه فأمرهم رسول الله فخلوا طريقه وإستقبله، فطعنه بحربته فوقع أبى عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم فكسر ضلعاً من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشاً غير كبير فأحتقن الدم. فقال

: قتلنى والله محمد. قالوا له : ذهب والله فؤادك، إنه ما كان بك من بأس. قال : أنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك فوالله لو بصق على لقتلنى. وبالفعل مات عدو الله وهم راجعون إلى مكة.(٧٨)

وجدير بالذكر أن رسول الله ــ صلى الله ععليه وسلم ــ كان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها، وألقاب تدل عليها، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز كأنما هى أناس من جنوده الأوفياء، وأعوانه الأصدقاء فحربته إسمها النبعة، وله أخرى يقال لها البيضاء، وثالثة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العنزة.(٤٩)

أما عن إستخدام رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ للسيف، فيذكر ابن إسحاق أنه بعد أن إنتهت المعركة فى غزوة أحد،ولما إنتهى رسول الله إلى أهله، ناول سيفه إبنته فاطمة، فقال : أغسلى عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقنى اليوم، وكان يقال لسيف رسول الله الذى لم يفارقه فى غزوة من الغزوات ذو الفقار.(٥٠) بالإضافة إلى هذا فقد كان لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيوف أخرى هى، المخزم، والرسوب، والقضيب، القلعى، والبتار، والحتف، والعضب، والصمصامة.(٥١)

وهذه الأسماء للسيوف التى كان يستخدمها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نجد أنه يغلب عليها صفات القوة، وهذا أمر مطلوب لمن يستخدم السيف، إذ لابد للسيف أن يكون قوياً شديد القطع بتار. فالمخزم، والقضيب تعنى القاطع والحتف يعنى الهلاك، والصمصامة أى السيف الذى لا ينثنى.(٥٢)

وكذلك أتت بعض الأسماء تشبيهاً لمتن السيف، أو وصفاً لشكله مثل ذو الفقار، ذلك لأن هذا السيف كان فى وسطه مثل فقرات الظهر.

والرمى بالسهم يعتبر من أنواع السلاح التى أشاد بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ففى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يقــول :"وأعــدوا لــهم مــا استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى".

وفى السنن عن عقبة ــ أيضا ــ قال : رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : أن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفــر الجنــة. صانعــه المحتسب فى عمله الخير، والرامى به، والممد بــه"، وفــى روايــة : ومنبلة فأرموا، واركبوا وإن ترموا أحب إلى أن تركبوا كل لهو باطل. ليس من اللهو محمود، إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهلــه، ورميه بقوسه ونبله. فأنهم من الحق ومن ترك الرمى بعدمــا علمــه رغبة فإنها نعمة تركها"(٥٣).

وفى صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : خرج رســول الله صلى الله عليه وسلم بنفر يتنفلون، فقال : "إرموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا، إرموا وأنا مع بنى فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال : مالكم لا ترمون؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال : إرموا وأنا معكم كلكم.(٥٤)

وقد قيل فى هذا الصدد :

الرمى أفضل ما أوصى الرسول به

وأشجع الناس من بالرمى يفتخــر(٥٥)

ولما كــانت الســهام لابــد لــها مــن كنانــه توضــع فيــها، فإننا نجد كنانه سهام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إسمها الجمع أى العظيمة أو المثقلة أو المستورة.(٥٦)

السبـــاق

لا جدال أن السباق سواء كان على الأقدام، أو كان على ظهور الخيل أو الأبل إنما يكسب المتسابق قوة وجدية وشجاعة ومهارة علـــى الكر والفر وعلى هذا لنا أن تعتبر السباق من ضمن القوة المادية الدالة على فتوة رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أما مسابقته بـــالأقدام : ففى مسند الامام أحمد وسند أبى داوود مـــن حديـــث عائشـــة قـــالت : "سابقنى النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سبقنى فقال : هذه بتلك". وفى رواية أخرى، أنهم كانوا فى ســـفر فقال النبى لأصحابه : "تقدموا فتقدموا ثم قال لعائشه : "سابقينى، فسابقها فسبقته ثم سافرت معه مرة أخرى فقال لأصحابه : "تقدموا ثـــم قـــال : سابقنى، وسبقنى، فقال : هذه بتلك.(٥٧)

كذلك تسابق الصحابة على الأقدام بين يديه ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ ففى صحيح مسلم عن سلمة بن الأقوع قال : بينما نحن نســـير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبدا، فجعل يقول : ألا مســـابق إلـــى المدينة، هل من مسابق فقلت له : أما تكرم كريماً وتهاب شريفـــاً؟ فقال : لا. إلا أن يكون رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ذرنى أسابق الرجل. فقال : إن شئت فسبقت إلـــى المدينة.(٥٨)

وإذا جاز لنا أن نعتبر المصارعة نوعاً من أنواع السباق، فقـــد ثبت عن رسول الله، أنه صارع ركانة المطلبى وصرعه.

قال إبن اسحاق : كان ركانة بن عبد العزيز بن هاشم بن عبـــد المطلب بن عبد مناف أشد قريش فخلا يوماً برسول الله ـــ صلـــى الله

عليه وسلم ــ فى بعض شعاب مكة فقال له رسول الله : يا ركانـــه، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لإتبعتك، فقال له رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقــول حق؟ قال : نعم، قال : فقم حتى أصارعك. فقام إليه ركانه يصارعـــه، فلما بطش به رسول الله أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه.(٥٩)

وإذا كان ركوب الخيل يعد من متطلبات الفتوة، فقد ثبــت عــن رسول الله أنه ركب الخيل مسرجة، ومعراه ــ ففى الصحيحيــن مــن حديث ثابت، عن أنس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وســلم ــ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليله، فركب فرساً لأبى طلحة، عرياً فخرج الناس، فإذا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قد سبقهم إلى الصوت، وقد إستبرأ الخبر. وهو يقول: "لن تراعوا".(٦٠)

ولأهمية الخيل فى حياة رسول الله، فقد خلع بعـــض الأســماء والألقاب على أفراسه مثل السكب، وكان قد إشتراه من إعرابى، وكــان اسمه عند صاحبه الضرس، أى الصعب السئ الخلق، فشبهه رسول الله ــ بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه. ومن أفراسه أيضـــاً : اللــزاز واللخيف أو اللحيف، والورد، والطرف وسبحة.(٦١)

كذلك كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحــدب علــى خيله ويعزها، حتى أنه مسح وجه فرسه ومنخريه وعينيه بكم قمصـــه، فقيل له : يا رسول الله تمسح بكم قميصك؟ فقال : أن جبريل عاتبنى فى

الخيل. وذكر أن رسول الله فى غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف، فعلق عليه شعيره وجعل يمسح ظهره بردائه، فقيل له : يا رسول الله تمسح ظهره بردائك؟ فقال : نعم، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك. وقال : الخيل معقود بنواصيها الخير.(٦٢)

وهكذا نجد أنه قد إكتملت القوى المادية لفتوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الفتوة التى مصدرها كلمات الله عز وجل، تحث المؤمنين على الأخذ بالقوة المادية إستناداً إلى قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".(٦٣)

وأقوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكثيرة التى تشيد بالمؤمن القوى وأنه خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف إلا أن هذه القوة ليست لمصلحة فردية، أو لغاية دنيوية، أو أنها تهدف إلى السيادة والرئاسة والمجد الدنيوى وإنما هذه القوة ما هى إلا وسيلة ـ وسيلة شريفة ونبيلة ـ إلى غاية أسمى منها وأعلى، ألا وهى الجهاد فى سبيل الله لإعلان كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والفسق، والفساد وأن تكون كلمة الله هى العليا.

وتأكيداً لهذا فقد جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه.... فمن فى سبيل الله؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله".(٦٤)

وحقيقة الأمر إن فتوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان ظاهرها القوة والشدة، إلا أن باطنها الرحمة، والصفح، والمغفرة،

والعفو، والإحساس ذلك لأن المؤمنين كما وصفهم الحق تعالى : "أشداء على الكفار رحماء بينهم"(٦٥) وهنا نجد أنفسنا أمام بعض نقاط القوى المعنوية لفتوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتى نود أن نلقى عليها الضوء حتى تكون نبراساً لنا فى ظلمة الحياة، تهدينا إلى طريق الحق والخير والصواب.

ثانيا: القوى المعنوية للفتوة :

إن صح هذا القول : أن القوى المعنوية للفتوة تكون في مجموعها شجرة الاخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها. وبناء عليه إذا ما تعرفنا على خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نكون بذلك قد تعرفنا على كثير من جوانب القوى المعنوية لفتوته.

هذا وقد عبرت السيدة عائشة ـ رضوان الله عليهما ـ خير تعبير واجمعه واشمله حينما سئلت عن خلق رسول الله. فقالت : "كان خلقه القرآن".

فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج، لو لم تطبق فعلاً، ولو لم تتحقق واقعياً، لابد من أن تتحقق بالفعل، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ.(٦٦)

ولقد تحققت هذه الصورة للأخلاق فى شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حققها فى ذاته، وحققها فى مجتمعه، وحققها سلوكاً، وحققها واقعياً، ولقد تحققت الاخلاق القرأنية فى حدها الأسمى فى رسول الله، وكان ذلك بنص القرآن إذ قال تعالى مشيداً بأخلاق رسوله الكريم : "وانك لعلى خلق عظيم".(٦٧)

وكان من خلقه صلوات الله وسلامه عليه : الحياء، والسخاء، والتوكل، والرضاء، والذكر، والشكر، والحلم، والصبر، والعفو، والصفح، والرأفة، والرحمة، والنصيحة، والسكينة، والوقار، والتواضع، والافتقار، والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والاخلاص، والصدق، والزهد، والقناعة، والخشوع، والخشية،

والتعظيم، والهيبة، والدعاء،والبكاء، والخوف، والرجاء، واللياذة، واللجأ، والتهجد، والعبادة، والجهاد، والمجاهدة(٦٨) وإذا كانت هذه بعض من خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقلنا أن هذه الاخلاق هي في حقيقتها مجموعة صفات حميدة وخصال رشيدة، وهي بمثابة القوى المعنوية للفتوة فأنه يطول بناء المقام إذا ما أردنا أن نشرح هذه الخصال ونوضحها كل على حدة، ولكن سنكتفى بأن نأخذ بعض منها داعيين الله أن يوفقنا إلى أن نقتدى بها فى حياتنا.

الجود والكرم:

لقد مر بنا شغف العرب ـ فى الجاهلية ـ بالشجاعة والكرم، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ويختصون هاتين الفضلتين بالتنويه، محقين حينا، ومبطلين حيناً ومبالغين أحياناً.

ولم ينفر العرب فى الجاهلية من نقائص نفورهم من الجبن والبخل، ولم يعير خصم خصمه ويهجوه بأقبح من هاتين الرذيلتين.

ولقد عرفنا ـ من خلال البحث ـ أن الغاية العظمى التى يهدف إليها الفتى العربى من شجاعته وكرمه، المجد والسيادة، والرئاسة، وكسب الحمد والثناء.

لكن كرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لوناً آخر خلاف ذلك، فلم يكن جوده وكرمه لكسب محمدة، أو إتقاء منقصه، ولم يكن للمباهاة،أو الإستغلال أو لإجتذاب المادحين.

كذلك لم يكن الكرم عند رسول الله أريحة إن شاء أعطى، وإن شاء منع، بل كان كرمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تنفيذاً لأمر الله عز وجل، وفى سبيل الله وإبتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.(٦٩)

لقد كان كرمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حماية الدين، وكان الانفاق على الفقراء من المسلمين، وكان فى رعاية اليتامى والأرامل، وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال، وكان فى إجتذاب من يرى تألف قلوبهم.

هذا وقد وصف على بن أبى طالب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا:،"كان أجود الناس كماً، وأوسع الناس صدراً، واصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة، وإلينهم عريكه، وأكرمهم عشيرة، من رآه

بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه، وما سئل بشئ قط على الإسلام إلا أعطاه"(٧٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر كرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجد أنه أتاه رجل فسأله، فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين. فرجع الرجل إلى قومه وقال : اسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة.(٧١)

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصيرة ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه. فوقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :"أعطونى ردائى لو كان لى عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً، ولا كذابا، ولا جباناً.(٧٢)

وحدث جابر بن عبد الله قال : "خرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جمل لى ضعيف. فلما عدنا جعلت الرفاق تمضى وجعت اتخلف، حتى أدركنى رسول الله، فقال " "مالك يا جابر؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا. قال :أنخه، فأنختـه، وأناخ رسول الله ناقته، ثم قال : أعطنى هذه العصا من يدك، ففعلت، فأخذها فنحنى الجمل بها نخات، ثم قال : اركب، فركبت، فصار جملى يسابق ناقة الرسول.

ويستطرد جابر قائلاً : وتحدثت مع رسول الله، فقال لى : "أتبيعنى جملك هذا يا جابر؟ قلت : يا رسول الله، بل أهبه لك، وقال :

لا، ولكن بعنيه، فأخذ رسول الله يرفع فى ثمنه حتى بلغ الأوقيه. فقلت: افقد رضيت يا رسول الله؟ قال نعم : قلت : فهو لك، قال : قد أخذته.

ثم أصبحت فأنخت الجمل على باب رسول الله، وجلست فى المسجد قريباً منه فخرج فرأى الجمل، فقال "ما هذا؟ قالوا هذا جمل جاء به جابر، قال : فأين جابر؟ فدعيت له، فقال : يابن أخى، خذ جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له : أعط جابراً أوقية، فذهبت معه، فأعطانى ما أمر به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم(٧٣).

وإذا كانت هذه بعض الأمثلة الدالة على مظاهر الكرم فى حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإننا نجد أن كثيراً من أقواله ــ عليه الصلاة والسلام إشادة بالكرم، ولطالما حض على الكرم، بمعناه الذى يرتضيه الاسلام ــ من بذل فى تقوية الجيش، أو فى الدفاع عن الدعوة، أو فى البر بالفقراء.

ومن أقواله، صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الصدد "السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بعض منها، قاده ذلك الغصن إلى الجنة".(٧٤)

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "أن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها".(٧٥)

وقال عليه الصلاة والسلام "إن السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد عن النار، وأن البخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار".(٧٦)

كذلك ذكر رسول الله، أن من ضمن ــ السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله سبحانه :"رجلاً تصدق فأخفى، حتى لا تعلم

شماله ما تنفق يمينه.(٧٧) وقال رسول الله صلـــى الله عليــه وســلم : :إياكم والشح، فآنما أهلك من كان قبلكم الشح، أمرهم بالكذب، فكذبـــوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا".(٧٨)

وجدير بالذكر أن هذه الأقوال لرسول الله ـــ صلـــى الله عليــه وسلم ـــ وإرشادته بالكرم، وحضه عليه، وذمه للبخيل، والنـــهى عنــه، إنما ذلك إمتثالاً لما أمر به الله تعالى فى كتابه العزيز، إذ قـــال تعـــالى :"ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة".(٧٩)

وقال تعالى : "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".(٨٠)

الأمـانـة :

للأمانة معنيان خاص وعام :

المعنى الخاص : هو أن يرد الشخـص المـال،أو المتـاع، أو غيرهما إلى من إئتمنه عليه، لأنه حفيظ على هذا الشئ، راع له، ليـس من حقه أن يتصرف فيه، فإذا ما إسترده صاحبه سارع برده إليه.

أما المعنى العام : فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل كتمان السـر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلـف الشخـص أن يبلغه.(٨١)

فالذى يستودعك سراً واثق بك، مطمئن إلى كتمانك، فأنت على سره أمين. والذى يستشيرك، يفضى إليك بما فى نفسه،ويتوقع أن تبدى له رأياً صريحاً وإن خالفه، فإن فعلت فأنت أمين. والذى يكلفك تبليـغ خبر إلى آخر قد إختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أديت الرسـالة صحيحـة فأنت أمين.

وهكذا يكون سبب إختيارنا لهذه الصفة الحميدة وإدخالها ضمـن القوى المعنوية لفتوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ وجدنا أنها ترتبط فى معناها الخاص والعام بعـده فضـائل أخـرى، كـالصدق، والصبر، والاخلاص، العفة، والوفاء، والعدل..... هذا وقـد أمـر الله تعالى برد الأمانة وامتدحها، وذلك فى قوله تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعماً يعظكم به، إن الله سميعاً بصيراً(٨٢) وقال تعالى :"وإن كنتـم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، فأن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته، وليتق الله ربه".(٨٣)

وجعل الله تعالى الأمانه صفة من صفات المؤمنين إذ قال تعالى: "والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون".(٨٤)

كذلك ورد لفظ الأمين فى كتاب الله وصفاً لموسى ــ عليه السلام ــ وذلك فى قوله تعالى :" قالت احدهما يا أبت إستأجره إن خير من إستأجرت القوى الأمين"(٨٥)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر الأمانة عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نجدها كسائر فضائله، كلها شاملة متعددة المظاهر تضيق بها الصفحات إذا ما أردنا حصرها.

ومما لا ريب فيه أن مظهرها العظيم يتمثل فى نهوضه ــ عليه الصلاة والسلام ــ تبليغ الرسالة التى إئتمنه الله عليها وكلفه أن يقوم بها، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام، وإحتمل فى سبيلها اشق ما يحتمله البشر.(٨٦)

والأمانة صفة ملازمة لرسول الله حتى قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً، ونذيراً، وقد عرف العرب هذه الصفة فى محمد بن عبد الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ فكانوا يسمونه الأمين، ولهذا رحبوا بتحكيمه فيما كان بينهم من نزاع، وإرتضوا ما قضى به. وذلك عندما أعادت القبائل من قريش بناء الكعبة، حتى بلغ البنيان موضع (الحجر الأسود) فاختلفوا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا، ووصل الأمر بهم إلى حد الاستعداد للقتال، لنيل شرف رفع الحجر إلى موضعه، إلا أن أبا أمية بن المغيرة حسما للخلاف، ومنعا لإراقة الدماء والقتال، أشار عليهم قائلاً : يا معشر

قريش إجعلوا بينكم ــ فيما تختلفون فيه ــ أول من يدخل من هذا الباب يقضى بينكم، فقبلوا رأيه.

فكان أول من دخل عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما إنتهى إليهم، وأخبروه الخبر، قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هلم إلى ثوباً، فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه بيده، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناصية من الثوب، ثم إرفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله بيده الكريمة ثم بنى عليه.(٨٧)

وبهذا الرأى الصائب، والعمل الشريف، أرضى رسول الله القبائل كلها وحسم نزاعها، وأشركها فى الشرف الذى كانت تتنافس عليه. ولما كان الوفاء بالوعد يدخل ضمن الأمانة، فمن أوفى وعداً من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد روى أن رسول الله كان وعد أبا الهيثم بن النبهان خادماً، فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد، فأتت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ تطلب منه خدماً، وتقول : ألا ترى أثر الرحى بيدى؟ فذكر رسول الله موعده لأبى الهيثم، فجعل يقول: "كيف بموعدى لأبى الهيثم" فأثره به على فاطمة ــ لما كان قد سبق من وعده له ــ مع إنها إبنته، وكانت تدير الرحى بيدها الضعيفة.(٨٨)

ولما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلماً للإنسانية، وهادياً للبشرية، فقد غرس فى نفوس المسلمين حب الأمانى، وعدم الغش، وذلك عندما مر رسول الله فى السوق على كومة من الطعام فإدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا، فقال " ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله. فقال "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس من غشنا فليس منا.

بالإضافة إلى هذا ففى الكثير من أقوال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إشادة بالأمانة وحض المسلمين عليها ، نذكر على سبيل المثال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنم والصدقة مغرما". وقال عليه الصلاة والسلام :" أد الأمانة إلى من إئتمنك ولا تخن من خانك". وفى الصحيحين عن أبى هريرة، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ــ قال : "أيه المنافق ثلاثة إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان".(٨٩)

أى إذا إئتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للناس، أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها، أو إستعمالها بغير إذنه، فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وشيمة الأبرار المتقين.

ولعظم الأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وذلك فى قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها".(٩٠) وعلى الرغم من إختلاف العلماء فى ماهية هذه الأمانة، إلا أن الرأى الأعم فى هذا الصدد أن معنى الأمانة فى هذه الآية الطاعة والفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب والعقاب، قال القرطبى : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال.(٩١)

والذى نريد إيضاحه فى هذا المقام، مدى المسئولية التى ستلقى على السماوات أو الأرض، أو الجبال، إذا ما قبلت أى منهم الأمانة، لذلك إمتنعن عن قبولها خوفاً من الخيانة، أو عدم أداء هذه الأمانة. والإنسان هو الذى تحمل هذه الأمانة وذلك فى قوله تعالى : "وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً".(٩٢)

وجدير بالذكر أن رسول الله ــ صلى الله عليــه وســلم ــ قــد أوصى فى خطبة الوداع بالأمانة وذلك أن رسول الله عندما حج بالناس، أراهم مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب فيهم خطبته التى بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس، اسمعوا قولى، فأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها النــــاس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحــرمة يومكــــم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمـــالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من إئتمنه عليها....(٩٣)

الرحمـــة :

رحمة ــ من باب فرح ــ رحماً ورحمة ومرحمـــة : أى رق قلبه له وعطف عليه، فهو راحم إسم فاعل. والرحمـــة مشتقـة مـن الرحم،... وهى تطلق على الأقارب مجازاً (أولو الأرحـــام) واصلـها جميعاً الرحم، وهو مكان الجنين فى بطن أمه.(٩٤)

قال تعالى :"ولا يحـل لـهن أن يكتمـن مـا خلـق الله فـى أرحامهن".(٩٥)

ولما كانت الرحمة تشتمل على كثير من الصفات الحميدة، مثل: العفو والعطف، والحنان، والرفق، والشفقة, والمغفرة.... لذلك آثرناهـا دون غيرها من هذه الخصال حتى ندخلها ضمن القوى المعنوية لفتـوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والرحمة مـن صفـات الخـالق سبحانه وتعالى، فهو القائل : "إن رحمة الله قريب من المسلمين". (٩٦) وقال تعلى : "وربك الغفور ذو الرحمة"(٩٧) وقال تعالى : "فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين"(٩٨)

والرحمة من أخص الصفات التى وصف بها الحق رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد تردد وصف سول الله بالرحمة فى كتاب الله فى أكثر من موضع نذكر منها : قوله تعالى : "ومـا أرسـلناك إلا رحمة للعالمين".(٩٩) وقال تعالى : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"(١٠٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر رحمته ــ عليه الصلاة والســلام ــ نجد أنها تعددت وتنوعت، فوسعت المسلمين، وغير المسلمين، وإتسعت

للأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وإمتدت إلى الكبار والصغار، وإستوعبت الطير والحيوان.

ففى غزوة حنين ساق المسلمين الشيماء بنت الحارث ــ أخت الرسول من الرضاعة ــ إلى رسول الله، فعنفوا عليها فى السياق، فقالت لهم : إعلموا أنى أخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها، حتى أتو بها إلى رسول الله، فقالت : يا رسول الله، أنى أختك من الرضاعة. قال : وما علامة ذلك؟ قالت : عضة منك فى ظهرى، فعرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيرها، وقال : إن أحببت فعندى محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك، وترجعى إلى قومك فعلت. فقالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.(١٠١)

وأصدق مثال على رحمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ موقفه من قريش يوم فتح مكة فلا يخفى على أحد ما لاقاه رسول الله من إيذاء قريش له ولأصحابه، إلا أن موقفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن مقابلة الإساءة بمثلها إنما كان موقفاً يدل على رجولة كاملة وفتوة تامة، موقفاً يدل على الرحمة، والعفو عند المقدرة، والمغفرة والإحسان إلى صاحب الإساءة والإيذاء.

فعندما دخل رسول الله مكة قام على باب الكعبة، فقال "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده،.... يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا : خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : إذهبوا فأنتم الطلقاء".(١٠٢)

ثم جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد، فقام إليه على بن ابى طالب ومفتاح الكعبة فى يده، فقال : يـا رســول الله، إجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رســول الله : "أيــن عثمان بن طلحة؟ فدعى له، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.(١٠٣)

ومن مظاهر رحمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأطفال، أنــه كان يؤتى بالصبى الصغير ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعــه فى حجره.... فربما بال الصبى، فيصيح به بعض من يــراه، فيقــول النبى: لا تزموا (لا تقطعوا)الصبى بوله فيدعه حتى يقضى بوله، ثــم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويسر أهله به، لئلا يروا أنه تأذى ببولــه، فإذا إنصرفوا غسل رسول الله ثوبه بيده.(١٠٤)

رأى الأقرع بن حابس رسول الله ـ صلى الله عليه وســلم ـ، وهو يقبل ولده (الحسن أو الحسين) فقال : إن لى عشرة من الولد مــا قبلت واحداً منهم فقال عليه الصلاة والســلام : "إن مــن لا يرحــم لا يُرحم".(١٠٥)

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى بالناس إذ جاءه الحسين، فركب عنقه وهــو ســاجد، فأطــال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قــالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمراً فقال عليــه الصلاة والسلام: "إن إبنى قد إرتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضــى حاجته".(١٠٦)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك من مظاهر رحمة رسول الله بالأطفال، أنه في يوم تعـــثر الحسن ـــ ورسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على منبره ـــ فـــنزل فحمله وقرأ قوله تعالى : "إنما أموالكم وأولادكم فتنة".(١٠٧)

وإذا كانت رحمة رسول الله وسعت المسلمين وغير المســلمين، الأصدقاء والأعداء، وإمتدت للكبار والصغار، فإنـــها ـــ أيضـــاً ـــ قـــد شملت الأحرار والأرقاء فقد أوصى رسول الله بالأرقاء خيراً، إذ قال : "إتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تـــأكلون، وأكســوهم ممـــا تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا، ومـــا كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم".(١٠٨)

بعث رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أ"نـــس بـــن مـــالك، لقضاء حاجة، فأبطأ عليه فتبعه فوجده في فتية يلعبون، فما أذاه أو عنفه أو قال له قولا يغضبه، وإنما قال ـــ عليه الصلاة والسلام : "يـــا أنـــس إذهب إلى حيث أمرتك".

وأمام هذه الأخلاق الكريمة والرحمة التي إتسعت إلى حد أنـــها شملت الأرقاء قال أنس بن مالك : كان رسول الله ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ أحسن الناس خلقاً فقد خدمته مدة عشـــر ســـنين فـــي الســـفر والحضر، والله ما قال لي شئ صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشئ لم أصنعه، لم لم تصنع هذا هكذا؟.

وقال عبد الله بن عمر : جاء رجل إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمـــت عنـــه رسول الله... ثم قال : "أعف عنه في كل يوم سبعين مرة"(١١٠)

ما أروع عفو رسول الله، وما أصدق رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالأرقاء الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، فلم يقل لصاحب السؤال كلما أخطأ أعف عنه إنما قال :"أعف عنه في كل يوم سبعين مرة" وذلك حتى يكون العفو مستمراً، والرحمة دائمة فى كل وقت من الأوقات، وليس فى وقت بعينه.

كذلك نجد أن رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ "إمتددت إلى الطير والحيوان وكثيراً ما كان يدعو إلى رحمتها. فمن مظاهر هذه الرحمة قوله عليه الصلاة والسلام : "عذبت إمرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، فلا هى أطعمتها وسقتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض".(١١١)

وقال صلى الله عليه وسلم :"بينما رجل يمشى فى الطريق فأشتد العطش فوجد بئراً فنزل بها وشرب ثم طلع... فإذا كلب يلهث من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى، فملأ خفه ماء... ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله تعالى. فغفر له. فقال بعض الصحابة : يا رسول الله وأن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال صلى الله عليه وسلم :" فى كل ذات كبد رطبة أجر".(١١٢)

رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جزاراً قد أضجع شاة للذبح وأخذ يعد شفرته أمامها فقال له : "أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تفجعها.

ورأى جزاراً ــ أخر ــ يجر شاة من رجلها ليذبحها وقد إنقلبت على جنبها. فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويلك قدها إلى الموت قودا جميلاً".(١١٣)

إذا كانت هذه بعض مظاهر رحمة رسول الله بالحيوان، فأنه من ضمن مظاهر رحمته بالطير، أنه سافر معه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعض أصحابه، فرأوا حُمَّره ــ نوع من الطير كـــالعصفور ــ معـــها فرخان لها فأخذوهما، فجاءت تعرش فلما رأها رسول الله قـــال :"مـــن فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها".(١١٤)

مما سبق يتضح لنا أنه كثيراً ما أمر رسول الله ـــ ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرحمة وكثيراً ما نهى عن القسوة، ووجدنا أن رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم تكن فى جانب دون الأخر، إنما هى رحمـــة شملت شتى الجوانب، رحمة إتسعت للأصدقاء والأعـــداء وإســـتوعبت الكبار والصغار، وشملت الأحرار والأرقـــاء، وإمتـــدت إلـــى الطـــير والحيـــوان والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فـــى ذلـــك يضـــرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون.

الزهــد :

قبل أن نتعرض للزهد عند رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم ــ نود أولاً أن نعرف معنى الزهد. فالزهد : زهد فى الشئ يزهد فيــه وعنه، إحتقره وأعرض عنه وتركه ولم يرغب فيه.

وإذا كان هذا المعنى للزهد يعد تعريفاً لغوياً له. فــإن صــاحب التعريفات يزيد على المعنى اللغوى معناً آخر، وهو معنى الزهد عنــد الصوفية. فيقول فى اللغة : ترك الميل إلى الشئ وفى إصطلاح أهــل الحقيقة (صوفية) هو : بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل هو تــرك راحة الدنيا طلباً لراحة الأخرة، وقيل هو : أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك.(١١٦)

وإذا كان لا يوجد خلافاً على معنى الزهد من حيــث اللغــة، إذ يعنى ترك الميل إلى الشئ، فإنه قد أتى الخلاف مــن حيــث المعنــى المعنوى للزهد، أو بالأحرى معنى الزهد عند الصوفيــة. وفــى هــذا الصدد يقول القشيرى : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : إختلف الناس فى الزهد، فمنهم من قال : الزهد فى الحرام لأن الحلال مبــاح من قبل الله تعالى: .... ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفــى الحلال فضيلة.(١١٧)

وكان إبراهيم بن أدهم يقول : الزهد على ثلاثة أصناف : فرض ويكون فى الحرام وواجب ويكون فى الشبهات، وســنة ويكــون فــى الحلال.(١١٨)

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلــت مــن اليــد.(١١٩) ومعنى ذلك أنه لا يكفى للزاهد أن يخرج الدنيا وزينتها وزخرفها مــن

يده، وإنما لابد وأن يخرجهما ــ كذلك ــ من قلبه، فما قيمة زهد العبــد ويده خالية من الدنيا وقلبه شغوف بها.

هذا وقد قسم الإمام أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثه أوجه الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثانى : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.(١٢٠)

وعن معنى الزهد يقول سفيان بن عيينه : الزهد ثلاثة أحــرف، فحرف الزاى : أن تترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء : أن تــترك هــوى نفسك، ومعنى الدال : أن تترك الدنيا بأسرها.... فإذا فعلت ذلك فــأنت زاهد.

وهكذا نكون قد سمعنا فى الزهد كلاماً كثيراً، ومن أحســن مــا رأيناه فيه ما قاله أبو سليمان الدارانى : أنه الزهد فى كل شــئ يشغــل عن الله تعالى حتى العلم والعمل.(١٢١)

ومن كل ما سبق نصل إلى أن الزهد ما هو إلا وسيلة شريفــة إلى غاية أسمى وأشرف وليس هو غاية فى ذاته، فالزاهد لا يزهد حتى يقال فلان زاهداً، وإنما هو زاهد حتى لا يشغله شئ عن الله عز وجــل حتى ولو كان هذا الشئ علماً أو عملاً لا يبتغــى صاحبــه مــن وراءه مرضاه الله عز وجل.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذا المعنى للزهد قد تحقق فى شخصية رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى زهد فى كل شــئ يشغله عن الله عز وجل.

وإذا ما أردنا أن نستعرض بعض مظاهر الزهد فى حياة رسول الله، لوجدنا أن زهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان المثل الأعلى فى الزهد الذى يدل على فتوة تامة ورجولة كاملة لأنه كان الزهد الإختيارى، أى أن رسول الله إختار الزهد مؤثراً على نفسه فقراء الأمة ومصالح المسلمين.

فقد روى مسروق عن عائشة ــ رضى الله عنهما ــ أنها قالت : قلت يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ يا عائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن إخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها. يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرضى لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا، ثم لم يرضى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، وقرأ ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله وتعالى : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل".(١٢٢) وقال : والله مالى بد من طاعته، وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجدى ولا قوة إلا بالله.(١٢٣)

وهكذا نجد أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إختار الزهد، إختار الجوع على الشبع، إختار الفقر على الغنى، إختار الحزن على الفرح.

فقد روى إبن عباس أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خرج ذات يوم يمشى وجبريل معه، فصعد على الصفا... فقال له النبى: يا جبريل ، والذى بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق، ولا سنة

دقيق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن يسمع هدة من السماء أفظعته، فقال رسول الله : أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال جبريل لا، ولكن هذا إسرافيل ـ عليه السلام ـ قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثني بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسيير معك جبال تهامه زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة.... فعلت،وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً... فأوما إليه جبريل أن تواضع لله. فقال صلى الله عليه وسلم ـ نبياً عبداً، ثلاثاً.(١٢٤)

وهكذا نجد أن رسول الله، لو علم أن المال يمكن أن يكون غاية للإنسان لبسط يده إليه فأخذه، ونعم به نفسه وصحابته وأمته جميعاً. لذلك إختار رسول الله أن يكون نبياً عبداً، يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كمل يأكل العبد، دائم التفكير، لا يتكلم فى غير حاجة، كثير البكاء والضراعه لله عز وجل، يمشى مع الفقراء والمساكين ليقضى حوائجهم، ويتواضع فيخيط نعله ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم أهله.(١٢٥)

هذا ويذكر لنا عمر بن الخطاب، مظاهر الزهد فى حياة رسول الله، عندما قالت له إبنته حفصه حينما فتحت عليه الفتوح : إلبس ألين الثياب إذا وفدت الوفود من الأفاق، ومر بصنعة الطعام، تطعمه وتطعم من حضر.

فقال عمر : يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت : بلى. قال : قد ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله لبث فى النبوة كذا وكذا سنه لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا

عشية، ولا شبعوا عشية إن جاعوا غدوة؟ وناشدتك الله هل تعلميـــن أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لبث فى النبوة كذا وكذا سنه لم يشبـــع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليه خيـــبر ونـــاشدتك الله هـــل تعلمين أن رسول الله، قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها إرتفـــاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلميـــن أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات فنـــام عليها، فلما إستيقظ قال : "منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة إثنونها بإثنين كما كنتم تثنونها". وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله، كان يضـــع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخـــرج بـــه إلـــى الصلاة حتى تجف ثيابه يخرج بها إلى الصلاة؟.... فمازال يقول حتـــى أبكاها وبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإنتحب.(١٢٦)

وتحدثنا السيدة عائشة عن معيشة رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ قائله : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رســـول الله مصباح ولا نار. فقيل لها : فيم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودين : التمر والماء.(١٢٧)

حقاً لقد زهد رسول الله فى الدنيا مع قدرته عليها، وزهد فـــى المال مع قدرته على الإمتلاك، وزهد فى المأكل والمشرب، والملبـــس والفراش، مع قدرته على العيش فى رغد ونعيم، إذ أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان له فراش من أدم حشوه ليف، وكانت له عباءة تفرش له حينما تنقل تثنى طاقتين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شـــئ غيره.(١٢٨)

وفى يوم أتى بإناء فيه عسل ولبن. فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يشربه وقال : شربتان فى شربة وإدامان فى إناء ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أحرمه ولكن أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأجب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله. وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسألهم طعاماً ولا يشتهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب.(١٢٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه الحياة الزاهدة التى إختارها رسول الله، جعلت نساءه يشتكين من أنهم لا يجدن ما يكفيهن من النفقة والزينة وإجتمعن فحدثن النبى بهذا فلم يفعل أكثر من تخييرهن بين الرضا الصابر أو التسريح الجميل وفى نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألم من شكواهن لم يخفه عليهن، ولا على صاحبيه وصهريه أبى بكر وعمر... فقد دخل عليه أبو بكر وعمر فواجداه واجما وحوله نساؤه، ففهم أبو بكر أن إجتماعهم لشئ متصل برغبات فأراد أن يسرى عن رسول الله. فقال : يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصه يجأ عنقها... وهما يقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ثم إعتزلهم رسول الله شهراً فنزلت الآية الكريمة :"يا أيها النبى قل لازواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً.

وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعـــد للمحســنات منكن أجراً عظيماً".(١٣٠)

فقال رسول الله للسيدة عائشة : أريد أن أعرض عليـــك أمــراً أحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك. قالت : وما هو يا رســول الله؟ فقرأ الآية... فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟ بل أختـــار الله ورسوله والدار الأخرة.

ثم خير النبى نساءه جميعاً، فأجبن بما أجابت به السيدة عائشـــة، ورضين بحال يستمتع بخير منها كثيرات من المعاصرات لهم ممن هن دونهم مكانه ومقاماً وصهراً(١٣١) ذلك لأنـــهن إخــترن الله ورســوله والدار الأخرة، مفضلين ذلك على الحياة الدنيا وزينتها.

والآن نريد أن نتساءل هل كان رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ ذا ثراء ومال حتى يثبت أن زهده عن إقتدار؟

نعم كان لرسول الله مال، وكان ماله كثير فى بعض الأحيان، إذ كان له ــ عليه الصلاة والسلام ــ خمس الغنائم التى يصيبها المسلمون من محاربيهم، وقد كانت الحروب كثيرة،وكانت الغنائم موفـــورة منــذ غزوة بدر، حتى إنتشر الإسلام فى سائر أنحاء الجزيرة العربية.

وهذا الخمس لم يحدده رسول الله إنما الذى حدده الله وذلك فـــى قوله تعالى : "وأعلموا إنما غنتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل"(١٣٢)

ففى هذه الآية الكريمة حدد الحق سبحانه وتعالى أن الغنائم تقسم خمسة أخماس، للمجاهدين أربعة أخماس الغنيمـــة، وللرســول خمــس

يختص به نفسه وأقاربه، واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، كما هو واضح فى الآية.

كذلك كان لرسول الله نصيب من الفئ وهو الذى ناله المسلمون من أموال المشركين، وأهل الذمة، بغير حرب كالجزية، وما تركوه فى حروبهم خوفا من المسلمين وما صالحوا المسلمين عليه (١٣٣). كالصلح الذى تم مع صاحب أيلة، ويحدثنا إبن هشام عن هذا الصلح قائلا : ولما انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة ـ صاحب أيلة ـ فصالح رسول الله، وأعطاه الجزية... وأتاه أهل جرباء وأذرخ فأعطوه الجزية فكتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم كتابا يقول فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه، من بر أوبحر.(١٣٤)

وهكذا نكون قد إستعرضنا نماذج من زهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الزهد الذى يدل على فتوة كاملة ورجولة تامة، ذلك لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ زهد فى الدنيا حين أقبلت عليه، وزهد فى المال الذى كان يأتيه كثيرا من الغنائم والفئ... مؤثرا فقراء ومساكين المسلمين على نفسه، وزهد فى المأكل والملبس والفراش مع قدرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على العيش فى رغد ونعيم. مؤثرا الدار الباقية على الدار الفانية، بعد أن علم أن الدنيا بزينتها وزخرفها لا تساوى عند الله جناح بعوضه.

هوامش
الفصل الثانى

(١) سورة الانبياء : الآية ٦٠

(٢) التفسير الوسيط : الحزب ٣٣ ص١١٣١ مجموع البحوث الاسلامية ٨٣

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الرابع ص٦٥ تحقيق د. عثمان يحي

(٤) سورة الزاريات : الآيات ٢٤ ــ ٢٦

(٥) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٦ ص٣٣، ٣٤

(٦) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٦ ص٣٤ دار الكتاب العربى القاهرة

(٧) سورة النجم : الآية ٣٧

(٨) سورة هود : الآية ٧٥

(٩) سورة الأنبياء : الآية ٦٩

(١٠) سورة يوسف : الآية ٣٠

(١١) سورة يوسف : الآية ٣٣

(١٢)القشيرى : لطائف الاشارات جـ٣ ص١٨٣ دار الكتاب العربى بالقاهرة

(١٣) أحمد الصباحى عوض الله : حياة وأخلاق الأنبياء ص١٤٥ طـ/ أولى ٨٣

(١٤) سورة يوسف : الآية ٢٣

(١٥) سورة يوسف : الآية ٩، ١٠

(١٦)سورة يوسف : الآية ٢٠

(١٧) سورة يوسف : الآية ٥٠

(١٨) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ ٢ ص١٤، ١٥ مطبعة البابى الحلبى ١٩٥٩.

(١٩) سورة يوسف : الآية ٩٣

(٢٠) سورة الكهف : الآية ١٣

(٢١) سورة الكهف : الآية ١٠

(٢٢) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٤ ص٥٢

(٢٣) سورة الكهف : من الآية ١٨

(٢٤) القشيرى: لطائف الاشارلات جـ ٤ ص٥٦

(٢٥) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٤ ص٥١

(٢٦) سورة الكهف : الآية ٦٠

(٢٧) سورة الكهف : الآية ٦٢

(٢٨) سورة يوسف : الآية ٦٢

(٢٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٢١ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٣٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص٣٥

(٣١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ص٢٩٠

(٣٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٤٣ دار نهضة مصر ١٩٦٦

(٣٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠

(٣٤) سورة التوبة : الآية ٤١

(٣٥) سورة التوبة : الآية ١١١

(٣٦) سورة الأنفال : الأيتان ١٥، ١٦

(٣٧) سورة فصلت : الآيات ١ ـ ٥

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص٢٦١ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٤

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٤٠ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٤٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص١٧٠

(٤١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٠ ـ دار النهضة ٧٩

(٤٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٣٨٠

(٤٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص١٦، ١٧

(٤٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص٢٨

(٤٥) المرجع السابق : ص٢٨

(٤٦) المرجع السابق جـ ٤ ص٦٤، ٦٦

(٤٧) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٩٠ دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩

(٤٨) ابن القيم : الفروسية ص٢٥، ٢٦ دار التراث العربى

(٤٩) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٧ ـ دار نهضة مصر ٧٩

(٥٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص٤٣

(٥١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٧

(٥٢) المرجع السابق ص٨٧

(٥٣) ابن القيم : الفروسية ص١٤ دار التراث العربى

(٥٤) ابن القيم : الفروسية ص١٤ دار التراث العربى

(٥٥) المرجع السابق : ص١٤٦

(٥٦) د. أحمد محمد الحوفى من أخلاق النبى ص٨٧ دار نهضة مصر ٧٩

(٥٧) ابن القيم : الفروسية ص٥ دار التراث العربى

(٥٨) المرجع الاسبق : ص٦

(٥٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص٢٨ مكتب الكليات الازهرية ٧٤

(٦٠) ابن القيم : الفروسية ص٢٨ دار التراث العربى

(٦١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٨ دار نهضة مصر ٧٩

(٦٢) المرجع السابق : ص٨٩

(٦٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠

(٦٤) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص٩٣

(٦٥) سورة الفتح : الآية ٢٩

(٦٦) د. عبد الحليم محمود : الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص١٨٥

(٦٧) سورة القلم : الآية ٤

(٦٨) الطوسى ، اللمع ص١٣٩ ـ تحقيق د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقى سرور طـ ١٩٦٠

(٦٩) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص٩٧ ـ دار نهضة مصر ٧٩

(٧٠) الغزالى : احياء علوم الدين جـ٢ ص٣٧٩

(٧١) المرجع السابق : ص٣٧٩

(٧٢) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ٢ ص٣٨٠

(٧٣) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص١٠١، ١٠٢ ـ دار نهضة مصر ٧٩

(٧٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ـ جـ٣ ص٢٤٣، وذكره أبو نعيم الحليه.

(٧٥) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٣ ص٢٤٤

(٧٦) المرجع السابق : جـ٣ ص٢٤٥، اخرجه الترمذى

(٧٧) اللؤلؤ والمرجان : جـ١ ص٢٤٥

(٧٨) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ ٣ ص٢٥٣

(٧٩) سورة آل عمران : الآية ١٨٠

(٨٠) سورة الحشر : الآية ٩٠

(٨١) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص١٤٣ ـــ دار النهضة ص٧٩

(٨٢) سورة النساء : الآية ٥٨

(٨٣) سورة البقرة : الآية ٣٨٧

(٨٤) سورة المؤمنون : الآية ٨، سورة المعارج : الآية ٣٢

(٨٥) سورة القصص : الآية ٢٦

(٨٦) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص١٤٤

(٨٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص١٨٢

(٨٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٣ ص١٣٣

(٨٩) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٤٧ ـــ مكتبة نصير ٧٨

(٩٠) سورة الأحزاب : الآية ٧٢

(٩١) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٤٦

(٩٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢

(٩٣) إبن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص١٨٥

(٩٤) إبراهيم احمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ١ ص٢٦٠ ـــ مجمع البحوث ٨٣

(٩٥) سورة البقرة : الآية ٢٢٨

(٩٦) سورة الأعراف الآية ٥٦

(٩٧) سورة الكهف : الآية ٥٨

(٩٨) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧

(٩٩) سورة البقرة : الآية ٦٤

(١٠٠) سورة التوبة : الآية ١٢٨

(١٠١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص٧٥

(١٠٢) المرجع السابق : ص٤١

(١٠٣) المرجع السابق : ص٤١،٤٢

(١٠٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٧

(١٠٥) المرجع السابق : ص٢١٨

(١٠٦) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٨

(١٠٧) سورة التغابن : الآية ١٥

(١٠٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٩

(١٠٩) أحمد الصباحى عوض الله : حياة واخلاق الانبياء ص٢٠٧ ـ مكتبة مدبولى ٨٣

(١١٠) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢٠٩

(١١١) الزبيدى : تيسير الوصول جـ ٢ ص٥٢ طـ ١٣٢١ هـ

(١١٢) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٧٤ مكتبة نصير ١٩٧٨

(١١٣) أحمد الصباحى عوض الله : حياة وأخلاق الانبياء ص٣٤٥ مكتبة مدبولى ٨٣

(١١٤) الزبيدى : تيسير الوصول جـ ٢ ص٥٢

(١١٥) إبراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ١ ص ٢٩٠

(١١٦) الجرجانى : التعريفات ص١٠١، ١٠٢ البابى الحلبى ٣٨

(١١٧) القشيرى : الرسالة ص٦٠

(١١٨) الشعرانى : تنبية المغترين ص١١٨

(١١٩) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٢

(١٢٠) القشيرى : الرسالة ص٦٢

(١٢١) الشعرانى : تنبية المغترين ص١٨٨

(١٢٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥

(١٢٣) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٢٢١

(١٢٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢٢٣

(١٢٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص١٧ طـ ١٩٨٦

(١٢٦) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٢٢١، ٢٢٢

(١٢٧) ابن المبارك : الزهد جـ ١ ص٣٤٥

(١٢٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٣٧٦

(١٢٩) المرجع السابق ص٣٧٣

(١٣٠) سورة الأحزاب : الايتان ٢٨، ٢٩

(١٣١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٢٧٦، ٢٧٧ ـ دار نهضة مصر

(١٣٢) سورة الأنفال : الآية ٤١

(١٣٣) د.أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٢٦٦ ـ دار نهضة مصر ٧٩

(١٣٤) إبن هشام : السيرة النبوية جـ٤ ص ٤ ١٢٥ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤



الفصل الثالث
من فتيان المسلمين

لا جدال أن مدرسة النبوة القائمة على دعائم الإسلام وهدى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أخرجت للبشرية رجالا أفذاذ، أخذوا القدوة الصالحة والأسوة الحسنة من معلم الإنسانية ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاهتدوا بهديه واقتبسوا من نوره مثلا عليا نادرة على مر التاريخ.

وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحق سبحانه وتعالى يقول : "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة".(١)

لهذا فقد إمتثل صحابة رسول الله لأوامر الحق تعالى، فكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلمهم وقدوتهم الصالحة الطيبة، والأسوة الحسنة الكريمة، سواء فى الشجاعة والقوة وفى الوفاء والعدل، والكرم، والعفو، والزهد ، والرحمة والمغفرة...

حتى صار كل واحد منهم يعدل أمة كاملة فى رجولته، ورجاحة عقله، ونفاذ بصيرته وتمام فتوته. ذلك لأنهم تأدبوا وتعلموا فى مدرسة النبوة وعلى يد رسول الله، فأحسن تأديبهم وتعليمهم، ولذا قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :" أصحابى كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم". فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلا ورجولة وبطولة ــ ونماذج فذة فى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارهم، وجعلت المسيحين فى أرض الروم يدخلون فى دين الله أفواجا.(٢)

وفى هذا الصدد يقول السير أرنولد : وإذا ما نظرنا إلى التسامح الذى إمتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.(٣)

حقا أن سماحة الاسلام كان هو العامل الاساسى فى إنتشار الدعوة الإسلامية وليس السيف كما يدعى الكثير ممن يجهلون حقيقة الإسلام. وهذا التسامح من أثر التعاليم الإسلامية التى وردت فى كتاب الله، ومن أثر معاملة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأعدائه وقدوته لأصحابه.

ووما هو جدير بالذكر أنه لا يسعنا المقام حتى نستعرض سمات القوة بشقيها المادى والمعنوى فى حياة صحابة رسول الله ــ كافة ــ وإنما سنكتفى بأن نستقى بعض النماذج عسى أن نقتدى بها حتى تكون لنا هاديا إلى ما فيه الحق والخير والصواب.

أبو بكر الصديق

يذكر إبن هشام أن على بن أبى طالب كان أول ذكر من الناس أسلم مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأمن بدعوته، ثم أسلم زيد بن حارثة (مولى رسول الله) ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة، وإسمه عتيق.(٤)

وقد أشاد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بسرعة إستجابة أبى بكر إلى الإسلام قائلاً : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه

عنده كبوة، ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه"(٥)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على السمات الحميدة والخصال الرشيدة والتى من خلالها نستطيع أن نتعرف على الفتوة فى شخصية الصديق نجد أن أبرز هذه السمات واوضح هذه الخصال،السخاء والكرم.

فقد كان أبو بكر يجود بالمال ولا يبخل، وليس جوده وكرمه من أجل إطعام الطعام فحسب بل تعدى جوده وكرمه أبعد من ذلك إلى إنقاذ الحياة من الهلاك والموت ومن الأمثلة الدالة على ذلك موقفه مع بلال عندما مر به وهو يعذب فى بطحاء مكة، وقت الظهيرة. فقال أبو بكر لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به. قال : قد قبلت... هولك. فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه وأخذ بلال فأعتقه.(٦)

وهنا نريد أن نتسائل، هل كان أبو بكر الصديق يهدف من وراء ذلك الكرم المجد والرياسة والسؤدد فى القبيلة أم أنه كان يريد شيئاً آخر خلاف ذلك؟ وتأتى الإجابة على هذا التساؤل على لسان أبو بكر نفسه ـ عندما قال له أبوه (أبو قحافة) : يا بنى، أنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال الصديق : يا أبت، أنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل.(٧)

مما سبق يتضح لنا أن ما يبتغيه الصديق، إنما هو مرضاه الله عز وجل ولا يهدف من وراء هذا المجد والسيادة، كما هو الشأن فى الجود والكرم فى الجاهلية. وفى سبيل ذلك لاقى أبو بكر من قومه

الأذى، حتى ضاقت عليه مكة، فإستأذن رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ فى الهجرة فأذن له،ة فخرج أبو بكر مهاجراً؟، حتى إذا ســـار من مكة يوماً أو يومين... لقيه إبن الدغنة، وهو يومئذ سيد الأحابيش* .

فقال إبن الدغنة : أين يا أبا بكر؟ قال : أخرجنى قومى وأذونى، وضيقوا على فقال : ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم... أرجع فأنت فى جـــوارى، فرجـــع معه.

وكان لأبو بكر مسجد عند باب داره، فكان يصلى فيه ويتعبـــد، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن بكى من خشية الله... وكـــان الصبيـــان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته فمش رجال من قريش إلى إبن الدغنة، فقالوا : يا بن الدغنة إنـــك تجـــر هـــذا الرجـــل ليؤذينـــا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى... ونحن نتخـــوف على صبياننا ونسائنا وعبيدنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء... فمشى إبن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر، أنى لم أجرك لتؤذى قومك، فأدخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت فقال أبو بكـــر : أو أرد عليك جـــوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال : فأردد على جوارى قـــال : قد رددته عليك. فقام إبن الدغنة فقال يا معشر قريش، إن إبـــن أبـــى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم.(٨).

لقد أُرنا أن نروى هذه القصة ــ كما ذكرها إبن هشام ــ ذلـــك لأنها تتضمن ــ العديد من السمات التى يتحلى بها الفتيان وأهـــم هـــذه

---

* الأحابيش، قبائل من بنى الحارث بن عبد مناه بن كنانه، والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعه، تحالفوا جميعا فسموا هذا الحلف (الاحابيش)

السمات ما شهد به إبن الدغنة ــ نفسه ــ فى حق أبى بكر حين قال : إنك لتزين العشيرة، تعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم. من هذه الشهادة يتضح لنا أن هذه الصفات كانت سمات أساسية فى شخصية أبى بكر الصديق قبل الإسلام، وبعده.

وإذا كانت هذه الصفات تجعل صاحبها حسب رأى إبن الدغنة، يزين العشيرة وترفعه إلى مرتبة المجد والسيادة فى قومه، وهذا غاية ما يبتغيه الفتى فى المجتمع الجاهلى.

إلا أننا نجد أن هذه الصفات التى يتحلى بها الصديق لم تكن لغرض دنيوى أو بهدف السيادة أو إبتغاء المجد والرياسة فى قومه، وإنما كان يهدف إلى نصره إخوانه المسلمين الذين يعذبون فى بطحاء مكة، وإبتغاء مرضاة الله ورسوله.

وفى هذه القصة ــ أيضاً ــ تتجلى شجاعة الرأى فى فتوة الصديق، إذ أنه آثر المشقة والأذى فرد على إبن الدغنة جواره، ولم يستجب إلى ما يدعوه إليه، ورضى بجوار الله عز وجل.

وإذا كان الإيثار من أهم الصفات التى يتحلى بها الفتى ــ فى الإسلام ــ فقد روى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لأبو بكر :"ما أصبح اليوم عند آل محمد من شئ يقوتهم" فأتاه أبو بكر بجميع ماله حتى وضعه بين يديه، فقال له رسول الله : " ما تركت لأهلك يا أبا بكر". فقال : الله ورسوله.(٩)

وهكذا يثبت أبو بكر صدق محبته لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أنه آثره على نفسه وأهله بكل ماله. وقال لرسول الله عندما سأله ما تركت لأهلك الله ورسوله.

وجدير بالذكر أن هذا الرد يعد غاية الأدب من أبى بكر حين قرن رسول الله مع الله تعالى فتحاً لباب، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لو قدر أنه رد على أبى بكر شيئاً من ماله لكان قبله من يده ــ صلى الله عليه وسلم ــ لكونه ترك رسول الله لأهله يعولهم، فما حكم أبو بكر فى ماله إلا ما إستنابه رب المال.(١٠)

وإذا كان الفتى يقتدى برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى إختياره للزهد، فيختار الجوع على الشبع، ويختار الفقر على الغنى، ويختار الحزن على الفرح، فإن الصديق خليفة رسول الله، قد أكد على هذا، ودلل عليه بالدليل الواضح، فقد روى عنه الزهرى أنه حين بويع بالخلافه، إعتلى المنبر وخطب وقال فى أثناء الخطبة : ... والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً، ولا ليله قط، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها لله قط فى سر ولا علن، ومالى فى الإمارة من راحة.(١١)

ويطول بنا المقام إذا ما إستعرضنا مظاهر الزهد فى حياة الصديق، ولكن نكتفي بهذا القدر من معرفة سمات الفتوة عند الخليفة الأول أبو بكر الصديق وننتقل الآن إلى فتى آخر من فتيان المسلمين حتى نتعرف على سمات الفتوة عنده.

عمر بن الخطاب :

لقد إجتمعت فى شخصية الفاروق عمر بن الخطاب صفات الرجولة الكاملة وسمات الفتوة التامة، فكانت شخصيته تعبر تعبيراً صادقاً عن طبيعة الفتيان بما تحويه من صفات وسمات مثل : الشجاعة، والحزم، والغيرة، على الشرف والنجدة والنظام، والطاعة، وتقدير الواجب...

إلى جانب ذلك فقد إختار عمر بن الخطاب لبس المرقعة تزهداً ــ وهو أمير المؤمنين ــ وترك الشهوات، وإجتناب الشبهات، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند إنتصاب الحق، ومحق الباطل، ومساواة الأقارب ، والأعداء فى الحق، والتمسك بالأشد من الطاعات.(١٢)

وإذا كان العدل من أخص الصفات التى إتصف بها الفاروق عمر، فإن هذا العدل إنما هو نتيجة محاسبة النفس التى الزم بها عمر نفسه وذويه، ورعيته، فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا... وأنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم.(١٣)

يقول الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطالب، فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فإعدنى على فلان فقد ظلمنى.... فرفع عمر درته، وخفق بها رأس الرجل وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم، حتى إذا أشغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه، أعدنى... أعدنى... فانصرف الرجل غضبان آسفاً... فقال عمر : على بالرجل... فلما عاد ناوله مخفقته وقال له : خذ واقتصى لنفسك منى فقال الرجل : لا والله ولكن ادعها لله. وانصرف..

ويستطرد الأحنف بن قيس قائلا : وعدت مع عمر إلـــى بيتــه فصلى ركعتين، ثم جلس يحاسب نفسه ويقول : إبـــن الخطـــاب كنــت وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهدك الله، وكنت ذليلا فأعزك الله... ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقـــول لربك غدا إذا أتيته.(١٤)

ماذا تقول لربك غدا... فى هذه العبارة الموجـــزة تتضـــح لنـــا محاسبة النفس وتأديبها عند عمر بن الخطاب، هذه المحاسبة التى كانت منهاجه فى الحياة، أمام كل لقمة شهية، وأمام كل شربة باردة وأمام كل ثوب جديد تساقط دموعه... تلك الدموع التى تركت على خديه خطيـــن أسودين من فرط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير : ماذا تقـــول لربك غدا.

لقد حاسب عمر نفسه وأدبها حتى تستقيم، وتدرك أن مـــا هـــى عليه من نعم ليس بحولها ولا قوتها، وإنما هو فضل من الله ومنة، ولقد وهبها الله تعالى هذه النعم كوسيلة لإختبار معدنها، وهذه المحاسبة حتى تتخلص النفس من كل وصف مذمـــوم وتســـتبدل بـــه كـــل وصـــف محمود.(١٥)

وإذا كانت القوة والبطش من سمات الفتيان فقد كانت هذه السمة واضحة جلية لا تخفى على أحد فى شخصية الفاروق إلا أنها لم تكـــن قوة وبطش إلا باسم الدين، قوة فى تنفيذ أوامر الله، وبطش على إعداء الله لاجتناب ما نهى عنه سبحانه وجدير بالذكر أن هذه القوة والبطـــش والشدة على الأعداء ومن يخالفون أوامر الله عز وجل، كـــان يقابلـــها رحمة ومودة وعطف على المؤمنين الذين يتبعون أوامر الله ويجتنبـــون

ما نهى عنه. وصدق الله تعالى إذ قال :"محمد والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم".(١٦)

ويطول بنا المقام إذا ما اردنا أن نعرض لمواقف الرحمة في حياة عمر بن الخطاب انما نكتفى بأن نقتبس منها النذر القليل، عسى أن تكون لنا نبراسا فى هذه الحياة التى طغى عليها العنف والقسوة. فقد خرج عمر بن الخطاب يوما مع أحد أتباعه، فوجد إمرأة معها صبيان وقدر منصوب على نار.... وصبيانها يتصايحون..... فدنا منها عمر وقال للمرأة : ما بال هؤلاء الصبية يتصايحون؟ قالت. الجوع : وأى شئ فى هذا القدر؟ قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا.... والله بيننا وبين عمر قال : أى رحمك الله. وما يدرى عمر بكم؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فتركهم عمر ومعه تابعه، وذهب إلى دار الدقيق وأخذ منه مقدارا ومقدار من شحم... وقال لتابعه : أحمله على فقال : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين قال : أأنت تحمل وزرى يوم القيامة؟

ورجع عمر بما يحمل إلى المرأة... وبقى معها يساعدها حتى طبخت وأطعمت صبيانها حتى شبعوا... وهى تقول له جزاك الله خيرا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.(١٧)

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير، لا يقال أنها هى ومثيلاتها من الشعور بالمسئولية، وليست من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالمسئولية أن يأتى من الرحمة وليس العهد بالرحمة أن يأتى من الشعور بالمسئولية.

بالإضافة إلى هذا، فموقف عمر هنا لو كان نتيجة الشعور بالمسئولية، لكان إكتفى بأن أرسل الدقيق والشحم إلى المرأة مع أحد

أتباعه، أو على الأكثر لكان ذهب بنفسه إلى المرأة وإعطاها الطعام دون أن ينتظر ويساعدها حتى تطعم صبيانها. ولكن الرحمة هى التى سيطرت على الفاروق فى هذا الموقف.

وجدير بالذكر أن صفة الرحمة فى شخصية عمر بن الخطاب إتسعت وإمتدت حتى شملت أهل الذمة، فعندما رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب، وعلم أنه يهودى...قال له : ما الجأك إلى هذا؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها... وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وأمثاله، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخزله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب... ووضع عنه الجزية وعن أمثاله.(١٨)

هذه الرحمة عند عمر بن الخطاب كان المحرك لها المحاسبة لنفسه وتأديبها وذلك النذير الذى كان يصلصل داخال نفسه : ماذا تقول لربك غداً إذا أتيته؟

وإذا كنا قد وجدنا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إختار الفقر على الغنى وإختار الجوع على الشبع، وإختار الحزن على الفرح، وإقتدى به فى هذا الشأن أبو بكر الصديق، فإن عمر كان يستحضر هذا دائماً ويكره أشد الكره أن يأكل أو يلبس خيراً مما أتيح للنبى وأبو بكر.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه طلب منه يوماً بعض أصحابه أن يرفق بنفسه فيما يطعم أو يلبس، فكانت إجابته صادرة عن المنهج الذى إرتضاه لنفسه فى الحياة والدنيا، إذ قرأ ــ عليه ــ قول الله عز وجل :

"أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجـــزون عــذاب الهون بما كنتم تســـتكبرون فـــى الأرض بغــير الحــق وبمــا كنتــم تفسقون".(١٩)

ومن أجل هذا إختار عمر حياة الزهد علــى حيــاة الــترف، إذ فرض على نفسه أضيق الحياة فى المأكل والمشرب والملبس... مع أنه لم يكن فقيراً، ومع أن المسلمين جعلوه فى حل من أن يأخذ مــن بيــت المال حاجته، وهو لم يفعل ذلك بخلاً أو ضناً على نفســه بمــا كــانت تقتضيه الحياة الراضية من المال. وإنما فعل إيثارا لما عنــد الله فــى الآخرة على ما فى الدنيا من ألوان المتاع.(٢٠)

وهكذا عزله خوفه من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة فى الدنيا، أبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوتاً، ومن العيش إلا كفافــاً مع قدرته على أن يصيب من الطعام أطيبه، ومن العيش أرغده.

عثمان بن عفان

إجتمعت فى شخصية عثمان بن عفان كثيراً من الخصال الحميدة التى تمثل القوى المعنوية للفتوة مثل السخاء والكرم،وسماحة النفس، والرفق والرحمة والحلم... وكانت الخصلة التى ميزه بها النبى فيما روى المحدثون وأصحاب السير، صدق الحياء وكان النبى يقول : "إن الملائكة لتستحى من عثمان". وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يلقى أصحابه متفضلاً غير متكلف، فإذا أذن لعثمان إحتشم وقال : "كيف لا نستحى من رجل تستحى منه الملائكة".

وكان رسول الله يعلل إحتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن لم يفعل إستحيا عثمان أن يثبت بين يديه، وأن يبلغه حاجته، ويأخذ حظه من التحدث إليه.(٢١)

وإذا ما نظرنا إلى كرم عثمان، نجد أنه كان كريماً سخى النفس واليد بماله فى سبيل الله، فعل من ذلك ما لم يفعله غيره من أغنياء المسلمين حينئذ، فهو الذى اشترى بئر رومه بألوف كثيرة، وجعلها للمسلمين، وبشره النبى بخير منها فى الجنة.

وهو كذلك إشترى أرضاً وسع بها النبى المسجد حين ضاق بالناس وبشره النبى خيراً منها فى الجنة.(٢٢)

ولما كانت غزوة تبوك حض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناس إلى الإنفاق فى سبيل الله، إذ كانت هذه الغزوة فى زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب فى البلاد. ويذكر إبن هشام أن عثمان بن عفان أنفق فى جيش العسرة فى غزوة تبوك فقال رسول

الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : "اللهم إرضى عن عثمان فإنى عنـــه راضى".(٢٣)

ويذكر صاحب الحلية نقلاً عن مسروق أن رســول الله، دعــى عثمان بن عفان يوم جيش العسرة فقال : "اللهم إغفر لعثمان مــا أقبــل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن وما أسر وما أجهر".(٢٤)

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصـــدد أن صفـــة الكـــرم فـــى شخصية عثمان بن عفان لم تكن الغاية منها مأربا دنيويـــاً، فلـــم يكـــن عثمان يطمع من وراء ذلك إلى السيادة أو المجد أو الرياسة إنما كـــرم عثمان كان إبتغاء مرضاه الله عز وجل ورسوله لذلك كان حاله الإيثار والسخاء، والإبتعاد عن الشح والبخل، وأنه علم أن ما عنده من مال إنما هو مما أنعم الله به عليه فكيف يبخل بما أتاه الله.

والحق سبحانه يقول :" ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتـــاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلـــوا بـــه يـــوم القيامة".(٢٥)

وإذا قلنا أن عثمان بن عفان كان كريماً ســـخياً، تتدفـــق عليـــه الأموال فلا يبخل وينفق باليمين والشمال. إلا أنه فى حياته ــ الخاصة ــ كان عابداً زاهداً فى الدنيا وزخرفها فكان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت، وكان يخطـــب النـــاس وعليـــه إزار (ثوب) عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة.(٢٦)

وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقبل ذلك صاحب التجارة الواسعة، والمال الوفير إلا أنه على الرغم من ذلك إقتدى برسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ــ فأختار الجوع على الشبع، واختار الحزن على الفرح،

خوفاً من عذاب الله، فقد روى عنه قوله : "لو أنى بين الجنة والنـــار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلـــم إلـــى أيتهما أصير.

وتتجلى فتوة عثمان بن عفانْ فى الوفاء والـــولاء والاخـــلاص للمبدأ الذى أمن به، فقد بذل عثمان حياته خوفاً من إراقة الدمـــاء فـــى مدينة رسول الله. يروى عبد الله بن رباح وأبو قتـــادة ــ رضـــى الله عنهما ــ أنه فى يوم حرب الدار ــ كنا عند عثمان ــ رضى الله عنـــه ــ فلما اجتمع الغوغاء على بابه، شهر غلمانه السلاح، فقال لهم عثمان: كل من لا يخلع السلاح فهو حرمنى... وخرجنا خوفاً علـــى أنفســنا... فلاح الحسن بن على فى الطريق، فرجعنا معه، ودخلنا علـــى عثمـــان لنرى ما أقبل الحسن، فلما دخل الحسن حياه وعزاه فى تلك البلية وقال: يا أمير المؤمنين، أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المســلمين بـــدون أمرك، وأنت إمام القوم، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم. فقـــال له عثمان : يا ابن أخى، ارجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره فلا حاجة لنا فى ارهاق الدماء.(٢٨)

وهذا الموقف ان دل على شئ، فإنما يدل على فتوة عثمان بـــن عفان، وعلامة الفتوة هنا التسليم فى حال ورود البلاء، فى درجة الخلة، كما حدث لابراهيم ــ عليه السلام ــ عندما اشعل النمروز النار وألقى به فيها، فقد جاء جبريل ــ عليه السلام ــ وقال : هل لك من حاجـــة. قال : أما لك فلا. فقال : فسل الله. قال : حسبى مـــن ســؤالى علمـــه بحالى.

فعثمان بن عفان ـــ هنا ـــ فى مكان الخليل، والغوغاء فى مكان النار، والحسن بن على فى مكان جبريل. ولكن ابراهيم ـــ عليه السلام ـــ قد نجا من البلاء وعثمان ـــ رضى الله عنه ـــ هلك فى البلاء.(٢٩)

والسؤال الآن هل كان من الممكن لأمير المؤمنين، عثمان بن عفان أن ينجوا من هذا البلاء؟ حقيقة الأمر أنه عرضت على عثمان أمور كثيرة فيها نجاته إلا أن الفتوة التى تمثلت فى الثبات والاستقامة على الحق جعلته يرفض كل ما عرض عليه.

ومن هذه الأمور أن معاوية بن أبى سفيان عرض على عثمان قبل أن يفارقه فى أواخر سنة أربع وثلاثين خصلتين رفضهما عثمان رفضا حاسماً، عرض عليه أن يسير إلى الشام فيكون فيها أمناً منصوراً. فأبى عثمان أن يترك جوار النبى وأن يستبدل بدار الهجرة داراً أخرى.

وعرض معاوية على عثمان أن يرسل إليه جنوداً من أهل الشام يقيمون معه فى المدينة ليردوا عند العاديات؟ فأبى عثمان وقال : لا أضيق على أصحاب رسول الله بجوار من يجاورهم من الجند.(٣٠)

لقد ثبت عثمان واستقام على الحق ورفض فرص النجاة التى عرضت عليه لأنها ستنال من كرامة هجرته وثوابها، وفى أى سن كان وهو يحمل هذا الولاء الفتّى الشاب للهجرة ولحقها عليه، كان فى سن الثمانين.

ويتجلى ثبات عثمان واستقامته، فى أنه يوم قتل كان صائماً ولم يبرح موضعه ولم يأذن لأحد بقتال، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل ـــ رضى الله عنه ـــ وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم.(٣١) ووقع الدم على موضع هذه الآية، قال تعالى : "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم".(٣٢)

على بن ابى طالب

لا جدال أن علياً بن ابى طالب تلميذ محمد ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ فقد تكفل رسول الله به قبل البعثة فعاش وتربى فـــى حجـــر النبوة، وعندما نزل الوحى على رسول الله كان على بن أبى طالب أول غلام أمن، وتركه رسول الله فى فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكـــة، وهو يواجه قريشاً العاتية، وعندما بـــدأت الغـــزوات وأذن رســـول الله لاصحابه بالقتال، نجد فتى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا، يحطـــم بـــها عتاولة القرشين(٣٣). وعندما آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان نجـــده يحاول جاهداً اصلاح الأمر على نهج كتاب الله، وســـنة رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ

وإذا كنا قد ذكرنا أن علياً بن أبى طالب تربى فى بيت النبـــوة، فلا ريب أن تكون سمات الفتوة عنده كاملة، بل كانت فتوته مبكرة، فمن هذه الفتوة المبكرة شجاعته وأمانته.

فأما الشجاعة ـــ المبكرة ـــ تتضح فى أنه قبل أن ينام فى فراش رسول الله ليلة الهجرة مع علمه بما يحيط برسول الله فى هـــذا اليـــوم. فقد اجتمعت قريش لكى تتخلص من رسول الله ودعوته على رأى أبى جهل الذى قال لهم : "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نســـيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارمـــاً ثـــم يعمـــدوا إليـــه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً".

على الرغم من هذا الخطر المحيط برسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من كل جانب إذ قريش باجمعها تتربص به على قلـــب رجـــل

واحد، إلا أن الفتى الشجاع على بن أبى طالب امتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ عندما قال له : "نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الاخضر، فنم فيه، فإنه لم يخلص إليك شئ تكرهه منهم".(٣٤)

أما عن أمانة على بن ابى طالب ـــ المبكرة ـــ فقد أمره رسول الله، أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع، التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله، ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وامانته ـــ عليه الصلاة والسلام.(٣٥)

وإذا كان رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لامانته كان اعدائه يضعون عند ودائعهم التى يخشون عليها، فانه عليه الصلاة والسلام ـــ عندما اذن له ربه بالهجرة، اراد أن يرد هذه الودائع إلى أصحابها، لم يجد خيرا من على بن ابى طالب لامانته لكى يقوم بهذه المهمة.

ويطول بنا المقام إذا ما أردنا أن نعرض لخصال الفتوة عند على بن ابى طالب ولكننا سنكتفى بأن نتعرف على شجاعته وزهده ـــ كرم الله وجهه ـــ ذلك لأن الشجاعة تعتبر سمة أساسية من سمات الفتيان سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب. أما الزهد فإنه لا يجعل الفتى كل همه الدنيا وزينتها وانما تكون غايته مرضاه الله عز وجل واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه سبحانه.

وإذا كانت الفتوة مجموعة فضائل منها الكرم،والشجاعة والإيثار، فمن الملاحظ أن هذه الفضائل كانت ظاهرة جلية فى خلق على بن ابى طالب الرجل الكريم الشجاع، المؤثر غيره على نفسه عملا بقول الله عز وجل : "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما

نطعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا"(٣٦) ويـــرى بعــض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق على بن أبى طـــالب وآل بيته والقصه تدور حول الكرم والايثار إذ كان المعنيون بالآية صائمين وجادوا بافطارهم على مسكين ويتيم واسير.(٣٧)

إلا أن البعض الآخر من المفسرين يرى أن هذه الآية عامـــة لا تخص قوم معينين. وسواء صح هذا الرأى أم ذاك فإن احداً لا يستطيع ان ينكر اتصاف على بن ابـــى طـــالب بـــالكرم والســـخاء والايثـــار والشجاعة.

ومن الأمثلة الدالة على شجاعته ــ كرم الله وجهه ــ أنـــه فـــى غزوة أحد يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء هو أبـــو سعيد بن ابى طلحة وينادى على من يبارزه، ويخرج على بن أبى طالب إليه، ويتلاقيان فى مبارزة ضارية حامية... ويتمكن منه ســـيف علـــى بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوى من الألم وبينما على يتـــهيأ ليجـــهز عليه بضربة قاضية.. ينحسر جلباب الرجل فتتكشف عورته فيغمـــض على عينه ويغض بصره... ويعود إلى مكانه فى صفـــوف المســـلمين، دون أن يجهز على الرجل ويسأله المسلمون : لماذا لم تجـــهز عليـــه؟ فأجاب قائلاً : أنه استقبلتى بعورته، فعطفتنى عنه الرحم وعرفت أن الله عز وجل قد قتله.(٣٨)

وهنا تتجلى شجاعة على وفتوته فى شرف المقاتلة، إذ ان شرف المقاتل عند ابن ابى طالب خلق لا ينساه أمام النصر، وامجاد الظفـــر،

ولقد عرف عنه ذلك دائماً فراح اعدائه يلمسون منه هذا الوتر كلما رأوا المنايا تهوى عليهم من سيفه البتار.

هذا وقد أبلى على بن أبى طالب فى غزوة أحد بلاء حسناً، حتى أنه نادى مناد يوم أحد : لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علـــى.(٣٩) فوصف على بالفتوة فى هذا اليوم إلى القدر الذى لا يصل إليـــه فتـــى آخر.

وهذه الشجاعة التى كانت سمة أساسية فى شخصية على بن أبى طالب قد عرفها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال فى حقه يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديـــه ليس بفرار؟ فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ علياً ــ كرم الله وجهه ــ ثم قال : "خذ هذه الراية فامضى بها حتى يفتح الله عليك".

ويذكر ابن اسحاق ان علياً حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه اهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم القاه من يده حين فرغ... وان هذا الباب اجهد ثمانية من الرجال لكى يقلبوه فما انقلب.(٤٠)

لقد كان على بن ابى طالب عظيم الشمائل عديد الفضائل، زاهد فى الدنيا يقول لها وهو أمير المؤمنين : "يا دنيا غرى غرى، قد طلقتك ثلاثاً عمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كبير،آه أه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق".(٤١)

ومن مظاهر الزهد فى حياة على بن ابى طالب، أنه كان يرقـــع قميصه ويقول : ان لبس المرقع يخشع القلب ويقتدى به المؤمن، وكان

يقطع من كم قميصه ما زاد على رؤوس الأصابع. وكان يبرد في الشتاء حتى ترتعد اعضاؤه من البرد فقيل له : ألا تأخذ لك كساء من بيت المال فانه واسع؟ فقال : لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً. ويروى انه قدم إليه مرة فالوذج فلم يأكله وقال : انك طيب الرائحة، حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتد.(٤٢)

مما سبق نجد أن علياً بن أبى طالب اختار حياة الزهد بعد أن علم إن الدنيا عمرها قصير لمن يعمل لها، ومجلسها حقير لمن يركن اليها وخطرها كبير لمن لا يتزود منها لآخرته بأتباع أوامر الله عز وجل واجتناب ما نهى عنه سبحانه. وقد أكد على بن ابى طالب على هذا. عندما قال : "لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك من أولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه، وان كانوا اعداء الله، فما همك وشغلك لأعداء الله.(٤٣)

وفى هذه الوصية نجد أنه على الإنسان ألا يجعل الدنيا أكبر شغله وهمه وغاية ما يسعى إليه، وقد مثل على بن ابى طالب الدنيا فى هذه الوصية بالأهل والولد. كذلك نجد أن هذه الوصية تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله، لأنه سبحانه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا.

وهذه الفتوة الواضحة فى شخصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب جعلت البعض ينسبون الفتوة إليه، بل جعلوه راسٍ للفتوة وسيد أهلها. وفى هذا الصدد يقول إبن أبى حديد :" فإن أربابها – يعنى أصحاب الفتوة – نسبوا انفسهم إليه، وصنفوا فى ذلك كتباً وجعلوا إسنادا انهوه إليه، وقصروه عليه وسموه سيد الفتيان".(٤٤) كذلك نسب

الشيخ عبد الجبار — الذى ألبس الناصر لدين الله العباسى لباس الفتـــوة سنة ٥٧٨هـــ — الفتوة إلى على بن ابى طالب وذكر أن : أرباب الفتوة يسندونها بالعنعنة إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب — عليه السلام وناهيك بذلك شرفاً وفخراً وعظمة وقدراً.(٤٥)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الناصر لدين الله قد ألغى كل فتـــــوة غير فتوته وجمع الأمر حوله وخرج بالفتوة من شعبيتها وعاميتها إلى الارستقراطية والخصوصية. وجعلها رياضة وتدريباً يقصد به الارتفاع بقوة الأمة المعنوية واعدادها لكل طارئ.(٤٦)

وإذا ما نظرنا إلى فتوة الناصر لدين الله نجد انها بعيدة كل البعد عن الفتوة عند الصوفية، ذلك لأن الفتوة فى معناها العام خالية تماماً من تلك النزعة الارستقراطية التى تتعارض مع روح التصوف.(٤٧)

كما أن الفتوة ليست فى طقوس معينه، مـــن لبـــاس أو شـــراب وخلافه، إنما الفتوة فى جوهرها وحقيقتـــها مجموعـــة مـــن الفضـــائل والخصال الحميدة التى يتحلى بها الفتى والتى تكـــون فـــى مجموعـــها شجرة الاخلاق بفروعها واغصانها وثمارها.

---

* لقد كثر فى زمن الناصر لدين الله (القرن السادس الهجرى) العيارون والشطار ويبدوا أنه خشى على دولته لذلك حاربهم. وفى نطاق البحث عند حديثنا عن الفتوة والملامتية سوف نعرض للتفرقة بين العيار والشاطر والفتى. راجع كتابنا : حقيقة الملامتية ودورها فى التصوف الإسلامى.

لقد برهن حمزة بن عبد المطلب من أول يوم دخل فيه الإسلام على شجاعته الفائقة، وفتوته الكاملة، وعلى أنه قوة أيد الله بها دينه واعز رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لأنه كان اعز فتى في قريش، وأشد شكيمة.

ويذكر ابن هشام في إسلام حمزة : أنه كان راجعاً من قنص له متقلداً سيفاً وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، فلما مر بإمرأة كانت قد شهدت إيذاء أبى جهل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك اليوم قالت له : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى إبن أخيك محمد أنفاً من أبى الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معداً لأبى جهل؟ إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال : اتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول* فرد ذلك على إن إستطعت فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.(٤٨)

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والهجرة إلى

* لم يكن حمزة حين انتقم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبى جهل قد اسلم ولكنه صرح بإسلامه فى ذلك الوقت، إذا أراد الله به خيراً وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه.

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والهجرة إلى المدينة وابلى بلاء حسناً فى غزوة بدر. وفى غزوة أحد كان حمزة ـ رضى الله عنه ـ يهد الناس بسيفه ما يبقى على شئ حتى صوب إليه وحشى ـ غلام جبير بن مطعم عن بعد فخر سريعاً وكان سيد وحشى قد مناه إن هو قتل حمزة أن يعتقه.(٤٩)

ولقد بلغ من غيظ قريش ونسائها من حمزة وشجاعته وبلائه فى قتالهم أن هنداً بنت عتبة ـ زوج أبى سفيان ـ مثلت به وشقت بطنه، ولاكت كبده وكافأت وحشياً بقلائدها وحليها لأنه قتل حمزة.(٥٠)

ولما وقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمزة قال: لن أصاب بمثلك أبداً ما وقفت موقفاً أغيظ إلى من هذا ثم قال : جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب من أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله".(٥١)

ولا يفوتنا ونحن نعرض لشجاعة وفتوة حمزة إلا أن نشيد بموقف صفية بنت عبد المطلب حينما أقبلت لتنظر إليه.... وكان أخاها لأبيها وأمها ـ فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنها الزبير بن العوام أن يرجعها قالت : ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بذلك قال : خل سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له... ثم أمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدفن.(٥٢)

خالد بن الوليد

ماذا عساى أن أقول فى خالد بن الوليد؟ وقد اشتهر بالقوة ورجاحة الرأى، والبسالة الفائقة، والشجاعة النادرة حتى انه لم يخزل فى أى معركة، سواء كان ذلك فى الجاهلية.أو فى الإسلام.

وقد يطول بنا المقام إن أردنا أن نعدد المواقف البطولية لخالد بن الوليد وانما نكتفى أن نذكر موقفه فى موقعة اليرموك. ففى هذه الموقعة إذا ببريد المدينة يصل، وفيه الخبر بوفاة أبى بكر الصديق، وفيه تولية عمر بن الخطاب مكانه خليفة للمسلمين، وفيه عزل خالد من إمارة الجيش وتولية ابى عبيدة أميراً للجيوش الإسلامية.

فخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار وأذاعها فى الناس أن يهنوا ويضعفوا وهم فى المعركة الفاصلة، فأدار المعركة بنفس القوة وبنفس العزيمة ـ الأولى ـ كأن لم يعزل، وكأنه لم يزل أميراً مؤمراً.(٥٣)

وهنا تتجلى فتوة خالد فى أنه لم يكن يعمل ما يعمل حباً فى جاه أو دنيا وإنما كان يتقدم إلى الموت إعزازاً لدين الله، وسيادة الاسلام.

لم يكن يعمل من أجل أبى بكر وانما كان يجاهد من أجل دينه وفى سبيل الله فسيان عنده إن كان قائداً أو جندياً وسيان عنده إن تولى أبو بكر أو تولى عمر فخالد هو خالد الجندى الباسل، والفتى الشجاع، سيف الله المسلول، الذى يخوض المعارك والحروب فى سبيل الله.

ولا أدل من قول خالد حين انتهت المعركة بنصر المسلمين وسلم كتاب عمر إلى أبى عبيدة بالإمارة : "الحمد لله الذى قضى على

أبى بكر بالموت، وكان أحب إلى من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض إلى من أبى بكر ثم ألزمنى سحبته".(٥٤)

وهذا شأن الفتى المؤمن الصادق الذى يطيع الله سبحانه امتثالا لقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم".(٥٥)

ومن المواقف التى تدل على فتوة خالد فى هذه الموقعه خروج "جرجة" أحد قواد الروم ونداؤه : ليخرج إلى خالد، فخرج إليه خالد، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة : يا خالد : اصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنيى فإن الكريم لا يخادع، بالله هل أنزل الله علـى نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله علـى قوم إلا هزمتهم؟ قال لا. قال : فيم سميت سيف الله؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ـ عليه السلام ـ فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعا ثم ان بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم ان الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين، ودعا لى بالنصر، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين. قال صدقتنى ثم ناقشه فى الإسلام حتى إنتهى الأمر بإسلامه. وترك صفوف الروم وقاتل مع المسلمين بعد أن علمه خالد الاسلام، وصلى ركعتين ومات جرجة فى هذا اليوم وهو يقاتل أشد قتال واصدقه دفاعا عن دينه الجديد.(٥٦)

ولقد أكد خالد بن الوليد، فى هذا الموقف، على أن الفتى حرا لا يكذب، كريما لا يخادع، يقول الصدق، ويفى بالوعد، ويلتزم بالعهد.

وكان صدق خالد وبساطته فى التعبير، وتواضعه، سببا فى إسلام هذا القائد الذى أراد الله هدايته.

وما أحوجنا فى تلك الايام إلى أن نتشرب تلك القيم والمبادئ التى تتمثل فى الصدق فى القول، والوفاء بالعهد، والإلتزام بالوعد، والتواضع فالفتى لا يحمل سيفاً فقط، بل الفتى من يحمل بين جنباته تلك المثل العليا والمبادئ السامية.

أبو ذر الغفاري

وها نحن أمام فتى صادق القول، يجاهر بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم، ففتوة أبو ذر لم تقتصر على حمل السلاح في وجه الاعداء لاعلاء كلمة لا إله إلا الله، انما كانت فتوته في النقد اللازع للاوضاع الاجتماعية التي لم يرضى عنها زمن خلافة عثمان بن عفان.

فقد وجد أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يعطي اقربائه مالاً كثيراً. فيقول بشر الكانزين بالنار، ويتلوا قوله تعالى "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم".(٥٧)

فيصل الأمر إلى عثمان فيرسل إلى أبي ذر مولى له ينهاه. فيقول أبو ذر : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي من أرضي عثمان بسخط الله.(٥٨)

ففتوة أبو ذر هنا تتضح في قول الحق وشجاعة الرأي التي تتمثل في معارضة النظام الاجتماعي، فقد كان يكره أن يغني الغني حتى يكنز الذهب والفضة وان يحتاج الفقير حتى لا يجد ما ينفق. ثم كان يكره أن يعطي الخليفة مال المسلمين للاغنياء بغير حقه، فيزيدهم غنى ويزيد الفقراء فقراً، ويؤثر المال قوما لا حاجة بهم إليه، ويصرف هذا المال عن المصالح العامة.

وتستوي الأمور بين أبي ذر الغفاري وأمير المؤمنين فيرسله إلى الشام، ولكن اقامته هناك لم تطل بسبب نقده للاوضاع الاجتماعية التي رأها. فخاف معاوية على أهل الشام من أقوال أبي ذر، فكتب يشكو منه إلى عثمان. فكتب إليه عثمان أن أشخص إلى جندباً (أبو ذر)

فأرسله معاوية إلى المدينة غير حفى به.(٥٩) وعندما ضاق عثمان من أقوال أبى ذر فى المدينة أمره أن يخرج منها فيقيم حيث شاء، فاختار أن يذهل إلى الربزة واقام بها حتى مات.

وجدير بالذكر أن أبا ذر فى فتوته لم يكن ثائراً ولا نازعاً يداً من طاعة ولا ناقداً للبيعة ولا ممتنعاً على الخليفة إن عاقبه.

فقد كانت فتوته تقوم على المجاهرة بالحق وقول الصدق والنقد اللازع والنصح العنيف ولم تكن أبداً خروجاً عن طاعة الأمير، ويتضح ذلك فى قوله : أمرت أن أطيع وإن أمر على عبد مجدع.

وقال للذين طلبوا إليه أن يقودهم إلى المقاومة الايجابية وشق عصا الطاعة : لو صلبنى عثمان على أطول جذع من جذوع النخل لما عصيت.(٦٠)

ما أروعها من أمثلة للفتوة تؤكد أن الألتزام بطاعة الأمير أو الحاكم لا تتعارض مع قول الحق وأداء النصيحة، فقد عارض أبو ذر ما وسعته المعارضة وجاهر بالحق، ولم يخشى إلا الحق سبحانه وتعالى، ولكن فى حدود الطاعة وتجنب الخروج على أمير المؤمنين.

وقد أيقن أبو ذر أن قيامه بالحق لله تعالى لم يترك له صديقا، إذ عاش وحيداً ومات وحيداً فقال : ان قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقاً، وان خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحماً، وان يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئاً.(٦١)

سلمان الفارسى

ووقفنا هنا مع فتى باحث عن الحقيقة، يترك الأموال والضياع، ويخرج سائحاً ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة متنقلاً بين الاديان فمن مجوسيته الأولى إلى المسيحية، ثم من المسيحية وبعد رحلات متعددة يقف هذا الفتى الفارسى على مشارف المدينة، مميزاً فى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ آيات النبوة وعلاماتها. وكان عدد من الرهبان النساك الذين قابلهم فى رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات واخبروه انها فى كتبهم القديمة، وان عهد هذه النبوة قد اطل.

ويحدثنا سلمان الفارسى أنه عندما أراد أن يستوثق من رسالة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جمع شيئاً من الطعام ودخل عليه وقال : أنه قد بلغنى أنك رجل صالح. ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة، وهذا شئ كان عندى للصدقة. فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاصحابه كلوا وامسك يده فلم يأكل، قال سلمان : فقلت فى نفسى هذه واحدة.

ويستطرد سلمان قائلاً : ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، ثم جئت به فقلت له : أنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها.. فأكل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه : قال : فقلت فى نفسى : هاتان اثنتان.(٦٢). وما ان رأى سلمان خاتم النبوة حتى ايقن أن محمدا هو رسول الله فآمن به وبرسالته، وساعده رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى افتدى نفسه من الرق.

وقد شارك سلمان الفارسى فى الغزوات والفتوحات الاسلامية وجاهد فى سبيل الله، حتى استقر به الأمر أميراً على المدائن.

فكانت معيشته معيشة الزهاد والعباد، وكان يسير فى المدائن فتسجد له العجم، فينكس رأسه ويقول : خشعت لله... خشت لله. وكان يردد : أوصانى خليلى ــ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن لا يكون متاعى من الدنيا الإكزاد الراكب.(٦٣)

ولما حضرت سلمان الوفاة، نظر الحاضرون فلم يجدوا إلا بضعة عشر ديناراً ويقال أن متاع سلمان قد بيع فبلغ أربعة عشردرهماً.(٦٤)

وهكذا يكون الفتى الواعظ منه يوم موته بيته، فالفتى يظهر الاستغناء أيام حياته، حتى يحسبه الآخرين غنياً من التعفف، فإذا مات كان بيته يوم موته موعظة للفتيان.(٦٥)

لقد ضرب سلمان الفارسى أروع الأمثلة للفتيان سواء فى حياته، أو فيما تركه بعد وفاته.

وإذا ما أردنا أن نجمل خصال الفتوة فى شخصية سلمان لوجدنا أنها تتمثل فى الزهد القائم على ترك الأموال والضياع من أجل الحقيقة التى ظل باحثاً عنها حتى هداه الحق تبارك وتعالى إلى الاسلام.

وقد اتضح هذا الزهد فى معيشته التى لم تزد على عيشة الزهاد والعباد وهو أمير على المدائن. حتى يروى فى هذا الصدد أنه كان يخطب فى الناس وهو يرتدى عباءة يلبسها أحياناً ويفترشها أحياناً.

ومما لا ريب فيه، أن هذه الخصال وغيرها من الخصال الحميدة، انما منبعها الشريعة الغراء، التى حضت على مكارم الاخلاق،

فكان فتيان المسلمين يستمدون من هذه الشريعة نبراساً لهم فى الحياة الدنيا، وزاداً لهم فى آخرتهم.

وان كنا قد ذكرنا بعض فتيان المسلمين فهذا قليل من كثير، إذ لا يسعنى المقام أن أحصى اسماء الذين تألقوا فى صفحة الاسلام الغراء.

فقد كان هناك عشرات ومئات من الفتيان المسلمين الذين جمعوا بين القوة والشجاعة ومكارم الأخلاق، فلم يقتصر أمرهم على أنهم جنود بواسل وكأنهم تخرجوا فى أعرق الكليات الحربية اليوم.

بل كانوا اسمى نفساً، وانبل غاية، واقوم خلقاً، وأرأف بالعدو قبل الصديق فجمعوا بذلك الفتوة بشقيها المادى والمعنوى.

فنجد منهم الذين عذبوا فى سبيل عقيدتهم، وأوذوا أشد الايذاء حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشية الفتنة. وهناك أبطال بدر من استشهد منهم ومن سلمه الله، وابقاه ليستشهد فى معركة أخرى.

وفى هذه المعركة استشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اصحابه فتكلم كثيرون واحسنوا القول، وكان ممن تكلم المقداد بن عمرو فقال : "يا رسول الله امضى بنا لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : "أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.(٦٦) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون".

وتكلم سعد بن معاذ فقال : "قد أمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك علىذ لك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة فأمضى يا رسول الله لما اردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق

لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقربه عينيك، فسر بنا على بركة الله".(٦٧)

ما أصدقها من كلمات تؤكد على ان الفتى لا يهاب الموت ولا يخشى القتال ما دام دفاعاً عن الحق، ونصرة دين الله. بالإضافة إلى أن هذه الكلمات أكدت على ان الفتى، وفياً بالوعد، صادق العهد، منفذاً للمواثيق.

ولا ننسى أن نذكر بعض أبطال أحد أمثال مصعب بن عمير الذى حمل لواء المسلمين وقاتل حتى قتل.

وفى هذه المعركة يبرز دور المرأة فى الفتوة، فهذه أم عمارة بنت كعب، خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تسقى الجنود وتضمد الجرحى، حتى رأت هزيمة المسلمين، انحازت إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأخذت تقاتل، وتذب عن النبى بالسيف، وترمى عن القوس حتى جرحت فى سبيل الله.(٦٨)

حقاً لقد كان المسلمون جميعاً ابطالاً، ولو رحت أعدد اسماء الابطال الذين ظهروا فى تاريخ الغزوات والفتوح الاسلامية، واعمال كل منهم وعظم بلائه، لما استطعت إلى ذلك سبيلاً ــ فى هذا المقام ــ ولخرجنا بذلك عن نطاق البحث.

ولكن نكتفى بهذا القدر لكى نتسائل : ما هى الغاية أو الهدف التى كان يسعى إليها هؤلاء الفتيان؟

لقد مر بنا أن هؤلاء الفتيان لم تكن غايتهم طلب الرياسة، ولـــم يهدفوا إلى السيادة، أو الزعامة، وإلا ما وجدنا منهم من يقبل أن يعــزل من منصب قائد الجيوزش، ويصبح جندياً تحت امرة قائد آخر.

لم يكن هؤلاء الفتيان يعملون ما يعملون حباً فى جاه أو دنيـــا، وانما كانوا يقدمون على الموت إعزازا لدين الله وسيادة الاسلام.

يعلمون علم اليقين انهم ان استشهدوا فهم احيـــاء عنـــد ربـــهم يرزقون وان كتب الله لهم النصر على اعدائهم، فذلك لســيادة الاســلام واعزازاً لدين الله، واعلاء كلمة لا إله إلا الله.



هوامش
الفصل الثالث

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٦٦، ١٦٧ دار نهضة مصر

(٣) Sirt. Arnold : The Preaching of Islam. Ch.3.3

(٤) إبن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٣١ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٥) المرجع السابق ص٢٣٢

(٦) المرجع السابق جـ١ ص٢٧٨

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص٢٧٨

(٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص١٦، ١٧

(٩) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ٢ ص ٧٥ ـ البابى الحلبى ١٩٥٩

(١٠) المرجع السابق ص٧٥

(١١) الهجويرى : كشف المحجوب جـ ١ ص ٢٦٩

(١٢) الطوسى : اللمع ص ١٧٤

(١٣) الغزالى : مكاشفة القلوب ص ٣٢١ ـ مكتبة نصير ١٩٧٨

(١٤) خالد محمد خالد : خلفاء الرسول ص ١٧٠، ١٧١

(١٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ٤٥ طـ ٨٦

(١٦) سورة الفتح : الآية ٢٩

(١٧) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ص ٤٦، ٤٧ طـ ١٩٦٨

(١٨) المرجع السابق : ص ٤٧

(١٩) سورة الأحقاق : الآية ٢٠

(٢٠) د. طه حسين : الشيخان ص ٢١٥ ــ دار المعارف ١٩٧٧٨

(٢١) د.طه حسين : الفتنة الكبرى جــ ١ ص ٥٣ دار المعارف ٧٦

(٢٢) المرجع السابق ص ٥٢

(٢٣) إبن هشام : السيرة النبوية جــ ٤ ص ١١٩

(٢٤) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جــ ١ ص ٥٦

(٢٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٠

(٢٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جــ ١ ص ١٧ ــ دار الفكر العربى

(٢٧) الاصبهانى : حلية الأولياء جــ ١ ص ٥٩

(٢٨) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧١

(٢٩) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧٢

(٣٠) د. طه حسين : الفتنه الكبرى جــ ١ ص ٢١٥ ــ دار المعارف ٧٦

(٣١) الطوسى : اللمع ص ١٧٨

(٣٢) سورة البقرة : الآية ١٣٧

(٣٣) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جــ ٢ ص ٤٢

(٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية جــ ٢ ص ٩١

(٣٥) المرجع السابق ص ٩٣

(٣٦) سورة الدهر : الآيتان ٨، ٩

(٣٧) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جــ ١ ص ٥٢١ ــ دار الأندلس سنة ١٩٨٢.

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٤

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٣

(٤٠) المرجع السابق ص ٢١٦

(٤١) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٨ ـ دار الفكر العربى

(٤٢) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٦٨

(٤٣) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧٤

(٤٤) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٩ ـ تحقيق محمد أبى الفضل

(٤٥) ابن العمار : الفتوة ص ٤٢ ـ تحقيق د. مصطفى جواد وزملائه طـ بغداد سنة ١٩٦٠

(٤٦) د. كامل مصطفى الشيبى : الصله بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٥٣٤

(٤٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٦ طـ ١٩٤٥

(٤٨) ابن هشام : السيرة النبوية: جـ ١ ص ٢٦٠، ١٦١

(٤٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢١

(٥٠) المرجع السابق : ص ٣٦

(٥١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٩

(٥٢) المرجع السابق : ص ٤١

(٥٣)ابن الأثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٩٨

(٥٤) المرجع السابق : ص ١٩٨، ١٩٩

(٥٥) سورة النساء : الآية ٥٧

(٥٦) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ١٨٨

(٥٧) سورة التوبة : الآية ٣٤

(٥٨) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٣

(٥٩) المرجع السابق : ص ١٦٣، ١٦٤

(٦٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٥

(٦١) الطوسى : اللمع ص ١٨٦

(٦٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٦٣) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨٦

(٦٤) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٠٦

(٦٥) السلمى : رسالة الملامتية ص ١١٨

(٦٦) سورة المائدة : الآية ٢٣

(٦٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ١٨٧، ١٨٨

(٦٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص ٢٨

الفصل الرابع
الفتوة في المدارس الصوفية

إذا كنا قد عرفنا أن الفتوة وجدت قبل الإسلام فى صور فردية.

وجاء الاسلام مهذباً لهذه الفتوة الجاهلية فدعا إلـى الخصـال الحميـدة والصفات الرشيدة والتى تكون فى مجموعها مكارم الأخلاق.

وتعرفنا على مصـادر الفتـوة ومظاهرهـا (بشقيـها المـادى والمعنوى) والغاية منها فى حياة سيد الفتيان رسـول الله ــ صلـى الله عليه وسلم ــ .

وألقينا الضوء على نماذج من فتيان المسلمين تمثلت هذه النماذج فى شخصيات بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

نود الآن أن ننتقل إلى المدارس الصوفية لنتعرف على سـمات الفتوة ومظاهرها وغاياتها فى هذه المدارس,

ولما كانت الفتوة متداخلة فى كثير من تعاليم الصوفية، فسـوف يقتصر بحثنا ــ فى هذه النقطة ــ على أربعة من مـدارس الصوفيـة واعنى بها : البصرة، الكوفة، الشام، خراسان. وهنا نجد أكـثر مـن سؤال يطرح نفسه على مائدة البحث :

أولاً : ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ الفتوة؟

ثانياً : وما هى مظاهر الفتوة فى هذه المدارس؟

ثالثاً : إذا قلنا أن للفتوة جانباً مادياً وأخر معنوياً فبأى الجانبين اهتمت الصوفية.

رابعاً : ما هى الغاية التى تسعى إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

مدرسة البصرة

لقد اكتوت البصرة،مثلها مثل كثير من المدن الاسلامية، بنـــار الفتنة التى اشتعلت بعد مقتل أمير المؤمنيــن، عثمـــان بــن عفــان ــ فشاركت فى حرب الجمل على الرغم من ان نظرتـــها للحيـــاة كـــانت النظرة المتسامحة الطيبة، هذه النظرة التى اخرجــت المرجئـــة الذيــن يرجئون أمر فاعل الكبيرة إلى الله عز وجل، كما اخرج سياق فكرهـــا المعتزلة اصحاب المنزلة بين المنزلتين متوسطين بعيدين عن الغلو.(١)

وإذا كانت البصرة قد شاركت فى حرب الجمل فإن ذلك ليـــس راجعاً إلى عثمانيتها أو إلى انها كانت مع على بن أبى طـــالب ومــن شيعته، وإنما كان الموقف فيها ينقسم إلى ثلاث فرق : فريق مع طلحة والزبير، وفريق مع على بن أبى طالب وفريق لا يرى القتال مع أحـــد الفريقين.(٢)

وما يؤكد هذا الرأى أنه عندما وصلت جيوش طلحـــة والزبـــير ومعها أم المؤمنين "عائشة" فى هودجها عند مشـــارف البصـــرة، اراد عثمان بن حنيف أن يمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين على بن أبى طالب من المدينة وينظر فى الأمر.

بينما اشار عليه هشام بن عامر قائلاً: "يا عثمان أن هذا الأمـــر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره، ان هذا فتق لا يرتـــق، وصـــدع لا يجبر فسامحهم حتى يأتى أمر على ولا تحادهم".

فابى عليه عثمان هذا الرأى ورفض هـــذه المشـــورة وأراد أن يعرف رأى الناس فأرسل أحد اتباعه قائلاً : أيها النـــاس، ان هـــؤلاء القوم الذين جاؤكم ان كانوا جاؤكم خائفين فقد جاءوا من المكان الـــذى

يأمن فيه الطير وان كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان ــ رضى الله عنه ــ فما نحن بقتلة عثمان. اطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاءوا". إلا أن الناس قذفوه بالحجارة فعرف عثمان بن حنيف ان لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم.(٣)

فخرج عثمان بن حنيف لملاقاة القوم، وخرج معه حكيم بن جبلة فى خيله قائلاً : لست بأخيه إن لم أنصره. ودارت رحى الحرب واثناء المعركة ضرب رجل من جيش طلحة والزبير ساق حكيم بن جبلة فقطع رجله فحبا حتى اخذها فرمى بها صاحبه فأصاب جسده فصرعه، فأتاه حتى قتله، ثم اتكأ عليها وقال(٤).

يا فخذ لن تراعى.... ان معى ذراعى.... احمى بها كراعى

وقال وهو يرتجز : ليس على أن أموت عار.... والعار فى الناس هو الفرار والمجد لا يفضحه الدمار

وقال أيضاً : "أنا خلفنا هذين ــ طلحة والزبير ــ وقد بايعا علياً واعطاه الطاعة ثم اقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان ففرقا بيننا، ونحن أهل دار جوار. اللهم انهم لم يريدا عثمان".(٥)

ولما كان الإسهاب فى الحديث عن هذه الحرب يكاد يخرجنا عن مجال بحثنا فإننا نكتفى بهذا القدر الذى من خلاله يتبين لنا شجاعة فتيان البصرة فى ساحة القتال دفاعاً عن البيعة التى بايعوها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب.

وإذا ما تركنا ساحة الحرب والقتال، واردنا أن نتعرف على الحياة الروحية فى مدرسة البصرة، وجدنا أن هذه الحياة الروحية تأثرت بصاحبى من صحابه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو

أبو موسى الأشعرى هذا الصحابى الـــذى صبـــغ البصـــرة، وحياتـــها الروحية بصبغته.

إذ كان أبو موسى الأشعرى يرى الدنيا احزانـــاً وفتنـــه، فكـــان يتأفف ويقول : "ما ينتظر من الدنيا إلا كلا محزناً وفتنه تنتظر. وحذر الناس من سطوة المال قائلاً : "انما هلك من كان قبلكم هذه الدنيا وهـــذا الدرهم، وهما مهلكاً لهم".(٦)

وذكرهم بتقلب القلب، وخشى عليهم نزواته، ثم طلب منهم البكاء والتباكى وحدثهم عن النار فى يوم البعث، وأخذ يشتد فى ذكرهـــا وقـــد أصبح البكاء بعده، والخوف من النار وأهوالها سمة العبـــادة والزهـــد البصرى.(٧)

وقبل أن نذهب إلى مدرسة الحسن البصـــرى، الملقـــب بسـيد الفتيان، وصاحب المكانه المرموقة فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية، لابد أن نشير إلى أنه ظهرت فى البصرة شخصيات فذة كان لها تـــأثير كبير فى عدد من كبار الصوفية، كما أننا نجد فى أقوال وافعال بعـــض هذه الشخصيات ما يدل على فتوة أثرت أبلغ تأثير على فتيان الصوفية.

مطرف بن عبد الله : (ت ٨٨هـ)

لقد كان مطرف بن عبد الله بن الشخير القرشى سلطاناً من سلاطين العابدين وزاهداً من أعمق الزاهدين فى تاريخ الاسلام، عرف حقيقة الدنيا وفتنتها، وانها زائفة فانية، لا تساوى عند الله جناح بعوضة، فتركها تزهداً وتقرباً إلى الله عز وجل.

ولد مطرف لصاحبى من صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو عبد الله بن الشخير ولقد اسند الحديث عن ابيه، كما اسند عن عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب وابى بن كعب، وأبى ذر الغفارى. وحفظ مطرف واخوه ــ القرآن وتتلمذا فيما بعد على عامر بن عبد قيس، وكانا يحضران حلقاته، ثم أصبحا من القراء.(٨)

وما يدل على الزهد فى حياة مطرف بن عبد الله، أنه كان من أعيان قومه وكبارهم، وكان يلبس ــ أول أمره ــ الملابس الفاخرة ظاهراً أمام الناس ولكن حين يعود إلى بيته ينقلب عابداً من كبار العباد. يقول الشعرانى : "كان مطرف يلبس البرانس، ويلبس المطارف، ويركب الخيل، ويغشى السلطان غير انك إذا افضيت إليه افضيت إلى قرة عين. ومع ذلك كان يقول فى دعائه : "اللهم لا ترد السائلين معى من أجلى".(٩)

ومن علامات الفتوة، التى تتضح فيها روح الملامة عند مطرف بن عبد الله أنه عندما مات أبنا له، سرح لحيته، ولبس أحسن ثيابه وخرج على قومه متعطراً، فعاتبه القوم ولاموه على ذلك بل غضبوا منه. فقال لهم : "أتأمرونى أن استكن للمصيبة، والله لو أن الدنيا وما

فيها كانت لم ثم وعدنى الحق تعالى على اخذها كلها بشربة ماء فى الآخرة لاخترت تلك الشربة".(١٠)

وقال : قد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصله منها أحب إلى من الدنيا كلها : قد وعدنى الله عز وجل :"الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون"(١١) فأستكين لها بعد هذا.

وهنا نجد انفسنا أمام فتى واقف عند مراسم سيده، وهو فى أحلك الظروف وهى موت ابنه، وعلى الرغم من هذه المصيبة التى نزلت به نجده امتثل لأمر الله عز وجل، وارجع الامر إلى خالقه، عسى أن يفوز بوعد الحق تعالى فقال : (انا لله وانا اليه راجعون)، راجياً ان تتنزل عليه صلوات الله ورحمته ويكون من المهتدين.

لقد كان مطرف بن عبد الله مثال الفتى العابد المقبل على ربه، يشغل ليله بتلاوة كتاب الله وتدبر معانيه. وفى هذا الصدد يقول : انى لاستلقى من الليل على فراش فأتدبر القرآن واعرض عملى على أهل الجنة، فإذا اعمالهم شديدة كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، يبيتون لربهم سجداً وقياماً،امن هو قانت اناء الليل ساجداً أو قائماً. فلا أرى منهم. فأغرض نفسى على هذه الأية:"ما سلككم فى سقر"(١٢) فأرى القوم مكذبين. وامر بهذه الآية : "واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً واخر سيئاً".(١٣) فارجوا أن أكون أنا وأنتم يا أخوتاه منهم.(١٤)

لقد كان مطرف يعيش متنقلاً فى اعماقه بين مشاهد الجنة ومشاهد النار وكان يرجو رحمة الله، أكثر من خوفه من عقابه.

وهكذا الفتى يكون متقلباً بين الخوف والرجاء، وقد يغلب الخوف على الرجاء، وقد يكون الرجاء هو الأغلب.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن هناك فرق بين الرجاء والتمنى فالتمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد وبعكسه صاحب الرجاء.

والرجاء بهذا لمعنى مصحوباً بحسن الظن بالله، استناداً إلى قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الله عز وجل ـ حديث قدسى ـ "أنا عند ظن عبدى بى وانا معه إذا ذكرنى، ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه، وان اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً وان اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً وان أتانى يمشى اتيته هروله".(١٥)

ومن أقوال مطرف بن عبد الله التى تدل على فتوة صوفية، بل نرى فيها الارهاصات الأولى للملامتية قوله : لأن ابيت نائماً واصبح نادماً، أحب إلى من أن ابيت قائماً واصبح معجباً.(١٦)

ومن غريب القول ان الاستاذ الدكتور على سامى النشار يرى ان هذا القول من طرف انما هو دعوة إلى السكون.(١٧) ولكننا نرى فى هذا القول محاربة لآفات النفس وخاصة آفة العجب التى تؤدى إلى الكبر والاغترار.

ذلك لأن المعجب يغتر بنفسه وبرايه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وإن له عند الله منة وحقاً بأعماله التى هى نعمة وعطية من عطاياه سبحانه.(١٨)

ولهذا قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاصحابه وهم خير الناس : ما منكم من أحد ينجية عملة". قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته".

ولهذا كان صحابة رسول الله من بعده يتمنون ان يكونوا تراباً وتبنا وطيرا مع صفاء اعمالهم ونقاء قلوبهم، فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه.(١٩)

ومن أجل هذا حارب مطرف بن عبد الله آفة العجب فى نفسه وذلك بندمه على تقصيره فى حق الله، على الرغم من كثرة عبادته وزهده فى الدنيا.

وهكذا نكون قد القينا بصيصاً من الضوء على حياة مطرف بن عبد الله، ووجدنا من خلال افعاله وأقواله ما يدل على بدايات أولى للفتوة الصوفية بل لا نغالى إذا قلنا اننا نجد عنده ارهاصات أولى للملامتية.

الحسن البصرى (ت ١١٠هـ)

لقد احتل الحسن البصرى فى تاريخ الفكر الاسلامى، بصفة عامة وتاريخ الصوفية بصفة خاصة، مكانه لم يدانيها من سبقوه أو من عاصروه من مفكرى الاسلام، وادعته الفرق المتخلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها. فصدر عنه مختلف الأراء ومتناقض الافكار ومتباين النظريات، أو بالأحرى جعلته الفرق المختلفة ينطق بارائها.(٢٠)

يقول عنه الهجويرى : وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم، وكان لطيف الاشارة فى المعاملة.(٢١)

ولسنا نحاول هنا توضيح الجوانب المختلفة لاراء الحسن البصرى، وتوضيح ما ينسب له وما لا ينسب، وما يصح له وما لا يصح. لأن ذلك يبعدنا عن منهج البحث وانما نريد ـ فقط ـ أن نجيب على سؤال : لماذا لقب الحسن البصرى بسيد الفتيان ـ فى عصره ـ دون أن يشارك فى معركة أو يخوض معمعة؟.

إذا كان الفتى الصوفى متقلباً بين الخوف والرجاء، ورأينا أن مطرف بن عبد الله قد غلب عليه الرجاء، فإن الحسن البصرى قد غلب عليه الخوف، حتى وصفت حياته كلها بالخوف الدائم، والحزن المستديم، حتى أطلق عليه "شيخ الاحزان".(٢٢)

يقول عنه صاحب حليه الأولياء : "حليف الخوف والحزن، اليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن، الفقيه الزاهد، المتشمر العابد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذاً، ولشهوة النفس ونخوتها واقذاً".(٢٣)

وإذا بحثنا عن مصدر الفتوة فى حياة الحسن البصرى، لوجدنا أنه كان يلتمس هذا المصدر من المثل الأعلى الذى وجده فى حياة الصحابة هؤلاء الذين كانت الدنيا بزينتها اهون على احدهم من تراب قدميه. هؤلاء الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفى هذا الصدد يقول الحسن البصرى.

"ولقد رأيت أقواماً يمسى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً. فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى، لاجعلن بعضه لله عز وجل، فيتصدق ببعضه، وإن كان أحوج مما يتصدق به عليه".(٢٤)

فى هذه الفقرة نجد أن أول سمة تقابلنا من سمات الفتوة عند الحسن البصرى هى "الايثار" هذه السمة التى استقى مصدرها من حياة الصحابة رضوان الله عليهم ــ الذين كانوا يجودون بكل ما يملكون ابتغاء مرضاة الله عز وجل لا يبتغون من السائل جزاء ولا شكوراً.

ثم يقرر الحسن البصرى أن هؤلاء الصحابة ألزموا أنفسهم الصبر، حيث أنهم انزلوا الدنيا من أنفسهم منزلة الميتة التى لا يحل الشبع منها إلا فى حالة الضرورة إليها فأكلوا منها بقدر ما يرد النفس ويقى الروح.

وهنا يقول الحسن البصرى : "رأوا الدنيا نتناً وجيفة، فعافوها، وزهدوا نتنها وكم كانوا يعجبون من الأكل منها شبعاً، والمتلذذ منها شرا : وكانوا يتسألون فى أنفسهم عن رواد الدنيا، أما يجدون ريح النتن. عجباً أن قوماً استعجلوا الصبر، ولم يجدوا عن الدنيا مناصاً، فلم يدخل أنوفهم الريح النتنه لأنهم نشأوا من ريح الارهاب النتين فلم يجدوا نتنه ولم يعرفوا اذاه فعاشوا فيه ما عاشوا زلم يجدوا عنه بديلا".(٢٥)

وهنا نجد أنفسنا أمام أكثر من صفة من صفات الفتوة عند الصوفية نذكر منها (الزهد) فقد وجد الحسن البصري الزهد سمة رئيسية من سمات الصحابة بعد ان عرفوا الدنيا وأدركوا أنها جيفة لا تساوى عند الله جناح بعوضة فكانت أهون على أحدهم من تراب قدميه.

صفة أخرى من صفات الفتوة الصوفية ــ نجدها في الفقرة السابقة وهى الصبر ولكن ما هى حقيقة الصبر عند الحسن البصري؟

يروى أن اعرابياً سأله عن الصبر، فقال له : الصبر نوعان : أولهما الصبر فى المصائب والبليات. والثانى : الصبر عن المنهيات. فقال الاعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك. فقال الحسن : يا اعرابى أما زهدى فكله رغبة،واما صبرى فكله جزع فقال الاعرابى : فسر لى هذا الكلام، فقد اضطرب اعتقادى.

فقال : صبرى فى البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم، وهذا عين الجزع وزهدى فى الدنيا رغبه فى الأخرة، وهذا عين الرغبة، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه فى الوسط. حتى يكون صبره خالصاً بالحق جل جلاله، لا خوفاً من جهنم وزهده مطلقاً للحق عما سواه لا للوصول إلى الجنة.(٢٦)

وهكذا نجد أن الخوف قد غلب على الحسن البصرى حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده(٢٧) فكان صبره على البلاء أو الطاعة ناطق بخوفه من نار جهنم. وانه زاهد فى الدنيا اقتداء بصحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهنا يقول : لقد أدركنا اقواماً، كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم عليكم.(٢٨) صفة أخرى من صفات الفتوة نجدها واضحة جلية عند الحسن البصرى ألا وهى

(الكرم) فقد روى عنه الشعرانى، أنه كان إذا استأذن عليه أحـــد مـــن اخوانه فإن كان عنده طعام اذن له، أو خرج إليـــه، ولا يتكلـــف فيمـــا حضر. بالإضافة إلى أنه كان يحضى على الكرم فيقول : أكرم اخوانك يدم لك ودهم.(٢٩)

وإذا ما انتقلنا إلى صفة اخرى من صفات الفتوة الصوفية عنـــد الحسن البصرى فإننا نجد ان محاسبة النفس كانت صفة غالبة بالإضافة إلى باقى الخصال الكريمة الأخرى التى يتحلى بها الحسن البصرى.

فكان يحاسب نفسه اشد الحساب ونادى بمحاسبة النفس فقال: "ان المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل، وانما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا انفسهم فى الدنيا وانما شق الحســـاب يـــوم القيامة على قوم اخذوا هذا الأمر من غير محاسبة".(٣٠)

وهنا يمكن القول ان الفتى عند الحسن البصرى هو من يفجـــؤه الشئ ويعجبه ويشتهية اشد الاشتهاء ويرى انه من حاجته. ولكنه ينادى والله ما من صلة اليك ــ هيهات هيهات ــ حيل بينى وبينك. ويفـــرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول: ما اردت إلى هذا، مالى هذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله.(٣١)

وإذا ما تساءلنا عن المصادر التى استقى منها الحسن البصـــرى محاسبته للنفس لوجدنا ان كتاب الله عز وجل قد اشار إلى هذا الأمر فى قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظـــر نفـــس مـــا قدمـــت لغد"(٣٢)

وهذه اشارة من الحق سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليحاســـبوا انفسهم على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر بـــن الخطـــاب : حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا.

وقال انس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب يقول رضى الله عنه ــ يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول : "وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك".(٣٣)

مما سبق يمكن القول ان محاسبة النفس عند الحسن البصرى استقى مصدرها من كتاب الله عز وجل ومن حياة الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ هذه الحياة التى وضعها الحسن البصرى فى مقارنة مع نفسه فصاح قائلاً : لقد ادركت اقواماً ما أنا عندهم إلا لص.(٣٤)

واذا كان الفتى الملامتى يلوم نفسه على تقصيرها، فإننا هنا نجد أن الحسن البصرى لا يقف عند حد اللوم بل يتهم نفسه بأنه لص. وذلك على الرغم مما عرف عنه من كثرة العبادة والزهد فى الدنيا، والاقبال على الله.

ولهذا نراه يكثر البكاء حزناً وخوفاً حتى صار الخوف والحزن سمة غالبة على حياته مؤكداً ذلك بقوله عن القرآن الكريم : والله يا ابن ادم، لئن قرأت القرآن ثم امنت به، ليطولن فى الدنيا حزنك، وليشتد فى الدنيا خوفك، وليكثرن بكاؤك.(٣٥)

وهكذا نكون قد القينا بعض الضوء على سمات الفتوة عند سيد الفتيان ــ فى عصره ــ الحسن البصرى، وعرفنا ان اهم هذه السمات الايثار والزهد والصبر والكرم بالإضافة إلى محاسبة النفس.

وعرفنا أنه استمد هذه السمات من المصدر الذى ان تمسك به لن يضل ابداً وهو كتاب الله وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالإضافة إلى ما وجده فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

محمد بن واسع (ت١٢٦هـ)

بقدر ما كان يعم الفساد، وتعظم الخطيئة، ويزداد الغنى الحرام في مجتمع البصرة كانت تعاليم الحسن البصرى تنمو وتزدهر بين الكثير من تلامذته وكان هؤلاء التلاميذ يجأرون بأصواتهم فى حلقات المساجد، وفى الطرقات يعظون االناس ويذكرونهم بوعيد الله.(٣٦)

وكانت هذه المواعظ، وتذكير الناس بوعيد الله من تلامذه الحسن البصرى انما تنبع من شجاعة الرأى التى تعد من سمات الفتوة التى غرسها سيد الفتيان فى عصره فكان تلامذته يقولون الحق ولا يخشون لومة لائم.

ومن هؤلاء التلاميذ الين نقابلهم فى مدرسة الحسن البصرى، نجد محمد بن واسع الذى كان يسميه الحسن (بزين القراء) وكان محمد بن واسع يخفى صومه وبكاءه ويعيب على من يعلن حالة البكاء على الناس وينقد على ابى سلمه يحيى نسبته إلى البكاء ويقول : إن أشر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء وكان قليل الكلام، يفضل الصمت، ولم يكن يلبس الصوف، ولم يكن يرى كثير عبادة، إذ كان يخفى عبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.(٣٧)

وإذا ما نظرنا إلى هذه الفقرة نجد أنها قد تضمنت العديد من أصول الملامتية هذه الاصول التى أوردها "السلمى" فى رسالة الملامتية.

أولاً : يعيب محمد بن واسع على من يعلن حالة البكاء على الناس. ويقول السلمى : "ومن اصولهم ـ الملامتية ـ ترك البكاء عند

السماع والذكر والعلم ـــ وغير ذلك وملازمة الكمد (الحزن) فإنه احمد للبدن.(٣٨)

حقا لقد كان هذا الاصل ـــ الملامتى ـــ واضحاً جلياً فى حيـــاة محمد بن واسع لانه لازم الكمد (الحزن) إذ تربى فى مدرســة الحســن البصرى "شيخ الاحزان" وانه كان يعيب على من يعلن حالة البكاء.

ثانياً : كان محمد بن واسع قليل الكلام. ويفضل الصمت. يقول السلمى :" ومن أصولهم ـــ الملامتية ـــ ترك الكلام فى العلم والمباهـــاة به وإظهار أسرار الله منه عند غير أهله ...... فالملامتية لم يتكلموا إلا بعد ما عقلوا عن الله فصاروا أمناء الله فى أرضه والأمين حريص على حفظ أمانته"(٣٩)

ثالثاً : لم يكن محمد بن واسع يلبس الصوف. يقول الســـلمى : ومن أصولهم ـــ الملامتية ـــ ترك تغير اللباس، والكون مع الخلق على ظاهر ما هم عليه والاجتهاد فى اصلاح السر. واصلهم فى ذلـــك مـــا روى عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ انـــه قـــال :"ان الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم"(٤٠)

رابعاً : كان محمد بن واسع يخفى عبادته ما استطاع إلى ذلـــك سبيلاً، ولم يكن يرى كثير عبادة. ويرى السلمى ان الملامتى الكـــامل هو الذى وصفه أبو يزيد، بأنه من كتم حاله عن الناس تماماً بحيث انــه يؤاكلهم ويشاربهم ويمازحهم ويبايعهم ويشاربهم ولكـــن قلبــه متعلــق بملكوت القدس.(٤١)

بالإضافة إلى هذا نجد ان محمد بن واسع يخشى الذنوب بل كان يرى ان حياته ـــ وهو العابد الزاهد الخائف ـــ ذنباً وخطيئة. وفى هذا

الصدد يقول: " لو كان يوجد للذنوب ربح، ما قد رتم ان تدنوا منى لنتن ريحى".(٤٢)

ومن أجل هذا نجد ان الهجويرى يعده من ائمة الملامتية، وذلك عند ذكر ائمة الملامتية من اتباع التابعين : محمد بن واسع ــ رضـــى الله عنه ــ ذا حظ واف فى هذه الطريقة ــ الملامتية ــ وانفاس عاليـــة واشارات كاملة فى الحقائق.(٤٣)

وهكذا نجد ان بذرة الفتوة التى غرسها الحسن البصرى قد نمت واتت ثمارها على يد تلاميذه، وتعرفنا على مثال من هـــؤلاء التلاميـــذ "محمد بن واسع" ووجدنا انه يأخذ بالطابع العام لمدرسة استاذه، فيحض على خشوع القلب والزهد فى الدنيا، والشجاعة فى الرأى وعدم البكـــاء والابتعاد عن أهل الاهواء واخفاء العبادة.

بل لا نغالى إذا قلنا ان بعض اصول الملامتيـــة التـــى ذكرهـــا السلمى تمثلت فى كثير من أقوال وافعال محمد بن واسع، ولهذا يعــــده الهجويرى واحداً من ائمتهم.

مدرسة الكوفة :

إذا كنا قد رأينا ان فتوة مدرسة البصرة المتمثلة في شجاعة الرأى وقول الحق، ظهرت نتيجة لازدياد الفساد، وتفشى الخطيئة والغنى الحرام فى مجتمع البصرة. فإننا نجد ان الأمر يختلف بالنسبة للكوفة، إذا انها تأثرت أكثر من غيرها من الامصار الاسلامية بالحروب والمعارك، فقد بنى سعد بن ابى وقاص الكوفة عام ١٧ من الهجرة بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، على اطلال بابل القديمة لتكون معسكرا للجيش العربى بعد فتحه لفارس.(٤٤)

كذلك شاركت الكوفة فى الحروب والمعارك التى دارت بين على بن ابى طالب وطلحة والزبير تارة، ومعاوية بن ابى سفيان تارة أخرى فكان من أثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التى سادت الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية جوهرها التضحية المقرونه بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المادى والانصراف إلى الزهد والفقر.(٤٥)

وقد ظهرت بوادر الخلق الذى ينسب إلى الفتوة من سعيد بن جبير(قتلة الحجاج عام ٩٤هـ) فيروى عنه انه لما وعدوه بالقتل غداً قال للحراس : دعونى اتأهب للموت واتيكم غداً فتنازعوا فى ذلك خوف الهرب. ثم أنه غلب عليهم صدقه فأطلقوه ثم جاءهم من الغد فقدموه للقتل، وجاء السياف فذبحه.(٤٦)

وهذه الرواية التى يذكرها الشعرانى عن سعيد بن جبير تضعنا امام فتوة ما بعدها فتوة، إذ يعلم سعيد علم اليقين انه مقتول، ويطلب من الحراس ان يطلقوا سراحه على وعد ان يعود، وبعد تردد يطلقون

سراحه لصدقه، فتتاح له فرصة الهرب من القتل ظلماً على يد الحجاج، إلا أنه لصدقه يأبى الهرب ويعود التزاماً ووفاء بالوعد واحتراماً لكلمة الصدق التى قالها.

وظهر فى الكوفه مثال آخر نلمس فيه روح الفتوة الصوفية، فنجد ان ابراهيم التيمى الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على انه ابراهيم النخعى، فحبس من أجل ذلك حتى مات. ويقول الشعرانى عن سبب حبسه : ان الحجاج طلب ابراهيم النخعى، فجاء الذى طلبه فقال : اريد ابراهيم، فقال انا ابراهيم فأخذوه وهو لا يعلم انه ابراهيم التيمى، فأمر الحجاج بحبسه فى الديماس (السجن) حتى مات.(٤٧)

ويرى الدكتور كامل مصطفى الشيبى. ان الفتوة فى الكوفة كانت مبدأ جماعة محددة لها طابعها الخاص، ولباسها المتميز. ويدلل على صحة الرأى بقول ابن الجوزى عن ابراهيم بن يزيد النخعى : انه كان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالعصفر، وكان من يراه لا يدرى أمن القراء هو أهم من الفتيان.(٤٨)

ألا أننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور الشيبى، وذلك لانه حتى وفاة ابراهيم بن يزيد النخعى (ت٩٥هـ) لم تكن هناك جماعة محددة تأخذ بمبادئ الفتوة ولها طابعها الخاص ولباسها المميز، إذ ان الفتوة حتى ذلك العهد لم تزد عن كونها فتوة فردية.

ولم توجد الفتوة فى جماعة إلا عند الملامتية الذين اكثروا من استعمالها وفسروا الملامة عالى انها نوع من الفتوة والرجولة واطلقوا على انفسهم اسم الفتيان أو الرجال وهنا يقول ابو حفص النيسابورى : مريدو أهل الملامة متقلبون فى الرجولة لا خطر لأنفسهم.(٤٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد ان الفتوة ما هـــى إلا مجموعـة الخصال الحميدة والصفات الرشيدة التى تكون فى مجموعــها مكــارم الاخلاق، وليست الفتوة فى لباس معين أو زى محدد كما هو الشأن فى الفتوة الارستقراطية عند الخليفة الناصر.

اضف إلى ذلك ان لباس الفتوة عند ابن الجوزى يختلــف عــن لباس الفتوة الذى ألبسه الشيخ عبد الجبار للخليفة الناصر، الـــذى هــو عبارة عن ثوب ابيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبه، مطوقة بوبر اسود من الأوبار الغالية القيمــة المتخــذة للبــاس الملوك، مما هو كالفنك واشرف معتمداً بذلك زى الاتراك.(٥٠)

وهكذا نجد أن هذا النوع من الفتوة يختلف عن الفتوة الصوفيــة التى تقوم على الاخلاق الكريمة والصفات الحميدة، وفى هــذا المعنــى يقول الشاعر :

قد يدرك الشرف الفتى ورداءه

خلق وجيب قميصه مقطــوع

يبقى أمامنا الآن أن نتعرف على بعض الشخصيات فى مدرسة الكوفة إذ لابد للباحث فى تاريخ مدرسة الملامتية ـ بنيسابور ـ ان يلم بالحركات الصوفية فى المدارس الاخرى، ليتبين له مدى تزاوج الأفكار الصوفية والملامتية خارج البيئة النيسابورية.

سفيان الثورى(ت ١٦١هـ)

لقد سارت مدرسة الكوفه فى طريق العبادة تحت اسم القراء، ثم انبثق عن القراء المحدثون، والعلماء، والفقهاء، ثم انبثق عنـــهم ايضــاً العباد والزهاد والصوفية وبذلك يكون لمدرسة الكوفة الفضل فى وضع مصطلح "الزهد" علماً على جماعة تتميز عن العباد، كما تتمـــيز عـــن القراء، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين.(٥١)

ومن أوائل الزهاد الذين نقابلهم فى مدرسة الكوفة، ابو عبـــد الله سفيان بن سعيد الثورى الذى يقول عنه صاحب الحلية : "كـــان العلـــم حليفه والزهد أليفه"(٥٢) ويقول الشعرانى : "وكان رضى الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها".(٥٣)

نشأ سفيان محدثاً، وكان الحديث اداة الفقة، ولقد برع سفيان فى الحديث والفقة إلى أكبر حد عرفه العلم الاسلامى ابان ذلـــك الوقـــت، ولهذا دعى سفيان بأمير المؤمنين فى الحديث. إلا أنه كان يعلم ان طلب الحديث بدون عبادة انما هو طلب للدنيا، فكان يردد: الحديث أكثر مـــن الذهب والفضة، وليس يدرك وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة وكم كرة القراء والمحدثين حين اقبلوا على الولاة والامراء يطلبون عز الدنيا بحديثهم وفقههم، وكان يقول : إذا رأيـــت القـــارئ يلـــوذ ببـــاب السلطان، فأعلم انه لص، فإذا رأيت انه يلوذ بباب الاغنياء فـــاعلم انـــه مرائى.(٥٤)

لهذا أثر سفيان اعتزال الناس والانفراد عنهم، والابتعـــاد عـــن امراء المسلمين حتى فى التشفع ورد المظالم عن الناس، ويرى ان هذا

خديعة ابليس وانما اتخذها فجار القراء سلماً، وكان يصرخ :"وددت ان انجو من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على".(٥٥)

من اجل ذلك نراه يفر هارباً عندما اراد أبو جعفر المنصور ــ الخليفة العباسى ــ أن يوليه القضاء، فلجأ سفيان إلى سفينة وقال : خبونى لأنهم يريدون قطع رأسى وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال : "من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين"، فأخفاه الملاح.(٥٦)

هذا الموقف من سفيان دليلاً على فتوته، بالإضافة إلى ان روح الملامة تكاد تكون هى المسيطرة على هذا الموقف. اذ ابتعد عن الخلق واعتزل الناس مخافة أن يميل إلى اهوائهم، ويدخل الرياء إلى قلبه، بل نجد أنه يفر ويهرب من تولية القضاء كأنه يهرب من القتل.

وإذا ما نظرنا إلى موقف سفيان الثورى من العمل والاكتساب نجد أن العبادة أو الزهد عنده لم تكن تعنى التبطل عن الكسب، بل دعا القراء إلى العمل والتكسب من ذات أيديهم، فيذهب إلى البصرة ويجلس فى مجلس العابد البصرى "يوسف بن عبيد" فإذا قراء كأن على رؤوسهم الطير فقال لهم : يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس. ويدعوهم مرة أخرى إلى عدم إظهار التخشع إذ يقول : لا تزيدوا التخشع على ما فى القلب فاتقوا الله واجملوا فى الطلب... ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.(٥٧)

من هذا يتضح لنا أن الزهد، والتصوف، ليس كما يشاع عند غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة، بل هو مشاركة إيجابية فى مختلف الانشطة والحرف والوظائف العامة، مع المحافظة، فى نفس

الوقت، على آداب الشريعة الاسلامية وكمالاتها. وينظــر الصوفيــة ــ كما نظر سفيان ــ إلى أهل التبطل على أنهم قوم جهالة حتى لو كانوا يدعون الخشوع والزهد. فالعامل العابد خير ــ عندهم ــ مــن العــابد الزاهد لأنه يقوم بدور ايجابى فى تنمية المجتمــع لا أن يصبــح عالــه عليه.(٥٨)

وتتضح حقيقة الزهد عند سفيان الثورى فى قوله : الزهد فــى الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء. ويقــول : ليــس الزهد فى الدنيا بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ، وانما الزهد فــى الدنيــا قصر الأمل. وكان يردد : ازهد فى الدنيا ونم لا لك ولا عليــك.(٥٩) بالإضافة إلى هذا لم يكن جوهر الزهد عند سفيان تعذيب الجسد وانمــا هو تهذيب النفس من شوائب الدنيا، ولذلك كان يقول : ما عالجت شيئــاً قط أشد على نفسى، مرة على، ومرة لى.(٦٠)

هذا بالرغم من أنهم قوموا ثياب الثورى التى عليه حتى النعــل فبلغ درهماً واربعة دوانق، وكان لا يجلس فى صدر مجلس قط وانمــا كان يجلس فى جنب حائط ويجمع بين ركبتيه.(٦١)

ويقول سفيان الثورى : من رأى نفسه على أخيه بالعلم والعمــل حبط اجر علمه وعمله، ولعل أخاه يكون اورع منه على حرم الله عــز وجل.(٦٢)

وهنا تتجلى فتوة سفيان الثورى، لأنه لا ينظر إلى أحــد بعيــن التحقير والنقص ذلك لان من ينظر إلى الخلق هذه النظرة بحجة العلــم والعمل يحبط أجره فى العلم والعمل.

وكأننا هنا أمام أصل من أصول الملامتية، الذين يقولون برؤية التقصير فى اعمالهم ويتلمسون المعاذير لغيرهم فيما وقعوا فيه من المخالفات، ولا ينظرون إلى أحد بعين التحقير والنقص.(٦٣)

مما سبق نصل إلى أن الفتوة عند سفيان الثورى كانت واضحة جلية فى اقواله وافعاله، ونجد انها تتمثل فى النقاط الآتية :

١ ــ الزهد فى الدنيا وحقيقة الزهد عنده انما هى فى قصر الأمل فى الدنيا وليس الزهد فى أكل الخشن ولبس الغليظ.

٢ ــ اعتزال الناس ، مخافة أن يميل إلى اهوائهم،حتى وصل الأمر به إلى رفض تولى منصب القضاء وفر هارباً.

٣ ــ تهذيب النفس، من شوائب الدنيا. ولا ريب أن تهذيب النفس يعتبر جهاداً يفوق الجهاد بالسيف فى ساحة القتال.

٤ ــ عدم النظر إلى الخلق بالتحقير والنقص لان مثل هذه الرؤية تؤدى إلى احباط العلم والعمل.

داود الطائى (ت ١٦٥)

لقد كان أبو سليمان داود بن نصير الطائى من كبـــار المشـــايخ وسادات أهل الصوفية منقطع النظير فى زمانه، وتلميـــذ الإمـــام أبـــو حنيفة، ومن أقران الفضيل بن عياض وابراهيم بن ادهـــم وغيرهمـــا. وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر وفى الدرجة العليـــا اختـــار العزلـــه واعرض عن طريق الرياسة والدنيا، وسلك طريق الزهد والتقوى.(٦٤)

وإذا كنا قد عرفنا ان داود الطائى كان عالماً فى الحديث والفقه، فيحق لنا ان نتساءل عن السبب الذى دعاة إلى ان يترك ما هـــو فيـــه ويؤثر حياة الزهد والعزلة؟

وللإجابة على هذا السؤال يذكر القشيرى عدة أسباب أدت بداود الطائى إلى الزهد، منها ان داود كان يمر ببغداد يوماً فنحاه المطرقـــون ــ أى الحرس بين يد الوزير "حميد الطوسى" ويبدو أنـــه كـــان علـــى معرفة بحميد ــ فقال : أف لدنيا سبقك بها حميد.

ويقال ايضاً ان سبب زهده انه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلى

واى عينيك إذا ســـالا(٦٥)

وهذه القصة يذكرها ابن الجوزى فى صورة أخرى، أنه ســـمع نائحة تنوح على مقبرة وتقول : يا حبى ــ ليت شعرى ــ بأى خديـــك بدا البلى، بالايمن أم بالايسر فصعق داود، وتراءت أمامـــه الصـــورة. ودخل مرة أخرى إلى مقبرة فسمع امرأة تنوح عند قبر وهى تقول :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه

لقاؤك لا يرجى وانت قريب

تزيد بلى فى كل يوم وليلـــــة

وتسلى كما تبكى وانت حبيب.(٦٦)

بالإضافة إلى هذا يذكر القشيرى أن داود كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له ابو حنيفة يا أبا سليمان : أما ألاداة فقد احكمناها، فســأله داود : فأى شئ بقى؟ فقال : أبو حنيفة العمل له.(٦٧)

ويقصى داود عن نفسه قائلاً :فنازعتنى نفسى إلى العزلة فقلــت لنفسى : حتى تجالسهم ولا تتلكم فى مسأله، فجالستهم سنة لا أتكلم فـــى مسألة، وكانت المسألة تمر بى وأنا إلى الكلام فيها أشـــد نزعــاً مــن العطشان إلى الماء البارد ولا اتكلم به.(٦٨)

وهنا يضع داود الطائى للصوفية ــ من بعده ــ طريق تصفية النفس من شوائبها ونوازعها، والتخلـــص مــن عجبــها وغرورهــا. ويفرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.

وجدير بالذكر أنه يتولد من العجب، الكبر. ومن الكبر الآفــات الكثيرة هذا مع العباد، أما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا ينتقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه، بل يظن انه يغفر له. واما العبادات والاعمال فإنه يستعظمها ويمن على الله بفعلها، وينســى نعمــة الله عليــه بــالتوفيق والتمكيــن فيها.(٦٩)

أما الغرور فهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليــه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد انه على خير أما فــى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور. وأكثر الناس يظنون

بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فـأكثر النـاس اذن مغـروررون وان اختلفت اصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كأن غرور بعضـهم اظهر واشد من بعض.(٧٠)

من أجل هذا اراد داود الطائى تخليـص النفـس مـن عجبـها وغرورها وذلك بأن فرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.

وهنا نتسأل مع استاذنا الدكتور النشار، هـل يوجـد فـى هـذا الموقف أثر مسيحى فقد كان الرهبان يفرضون على أنفسـهم الصمـت لمدد طويلة؟

ويجيب قائلاً : ولا أجد فى تاريخ داود الطائى ما يثبـت هـذا. كان الأمر كله منازعة نفسية وموقفا داخلياً حين نبهه استاذه الكبير أبو حنيفة إلى فكرة العمل.(٧١) والسؤال الآن ما هو المصدر الـذى مـن خلاله توصل داود الطائى إلى أن الصمت يعد علاجاً لتخليص النفـس من عجبها وغرورها؟

حقيقة الأمر أننا نرى أن هذا المصدر انما يتمثـل فـى ثقافـة الرجل الاسلامية إذ انه كان عالماً بالحديث والفقه، ففى كتاب الله عـز وجل نجد ما يشير إلى أن فى الصمت السلامة والنجاة، وفى الخـوض فى الكلام الخطر والحساب فى الآخرة. ويتضح ذلك فى قوله تعـالى : "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"(٧٢)

كذلك نجد فى أقوال رسول الله ــ صلـى الله عليـه وسـلم ــ الكثير الذى يحض على الصمت، مثل قوله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"(٧٣)

وعن صفوان بن سليم انه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن، الصمت وحسن الخلق"(٧٤)

بالإضافة إلى هذا نجد أن فى الصمت اقتداء بصحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد روى أن أبا بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ كان يضع حصاه فى فمه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد. وقال عبد الله بن سعود: والله الذى لا إله إلا هو ما شئ أحوج إلى طول سجن من لسان.(٧٥)

وهكذا نصل إلى أن فتوة داود الطائى تتضح فى ثورته على الفقهاء، وزهده فى الدنيا. حتى قال عنه معروف الكرخى : لم أر أحداً كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى، فلم تكن الدنيا واهلها جميعاً لديه بمقدار جناح بعوضه وكان ينظر إلى الفقراء بعين الاحترام، وان كانوا ملأى بالآفات.(٧٦)

بالإضافة إلى تهذيب النفس عن طريق الصمت الذى كان يوصى به مريديه. قال أبو ربيع الواسطى : قلت لداود الطائى : أوصينى فقال صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر من الناس، كفرارك من السبع.(٧٧)

مدرسة الشام:

قبل ان نعرض لسمات الفتوة فى مدرسة الشام، يجــدر بنـــا ان نلقى الضوء على البيئة الشامية، تلك البيئة التى قدمت الحياة الدنيا على الآخرة.

وذلك نتيجة لسياسة معاوية بن أبى سفيان الذى حكمها من ســنة ١٧هــ أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وظل هذا الحكم ممتــداً ــ قرابه ــ ثلاثة وأربعين سنة.(٧٨)

وعلى الرغم من أن معاوية حكم الشام فــى عــهد عمــر بــن الخطاب، إلا أنه لم ينهج سياسة عمر فى حكمة ولم يحاول أن يقتفى أثر خطى ابن الخطاب فى سياسته إذ كان حكمه ما هو إلا ملك دنيـــوى لا صلة له بعمر الذى ولاه. فكان يأكل الأطايب، ويلبس النواعم، ويجلس على الكراسى.

وقد لاحظ عمر ترفه وبضاضته، وتفننه فى مطعمـــه وراحتـــه فعلل له معاوية ذلك بأنه بأرضى الحمامات والريف(٧٩). بالإضافة إلى أنه قريب من الدولة الرومانية وان لم يظهر أمامهم بهذه الصــــورة ــ صورة الملك الدنيوى التى توحى بالقوة والبأس فأنـــهم لــن يــهابوه أو يخشون بأسه.

وعلى الرغم من هذه الحياة الناعمة فى بيئة الشام إلا أن صوت الحق دائماً هو الأعلى، فها هو أبو ذر الغفارى، ينكر على معاوية هذه الحياة المترفة المنعمة فكان أهل الشام يجتمعون إليه ويســـمعون منـــه ويؤمنون له.

وكان أبو ذر يردد : بشر الاغنياء بمكاوى من نار تكوى بـــها جباهم وجنوبهم وظهورهم حتى ضاق منه معاوية. وخاف على أهــل الشام من دعوته واقواله.

فكتب يشكو منه إلى عثمان، وكتب عثمان إليه أن أشخص إلــى جندياً ــ أبى ذر ــ على أغلظ مركب واوعره فأرســله معاويــة إلــى المدينة غير حفى به.(٨٠)

من هذا يتبين لنا أن الارهاصات الأولى للفتوة الصوفيــة فــى مدرسة الشام تمثلت فى شجاعة الرأى، هذه الشجاعة التى وضع بذورها أبو ذر الغفارى الذى قال الحق ولم يخشى فى الله لومة لائم.

كذلك رأى أبو الدرداء أهل دمشق ــ الشــام ــ يتبــارون فــى الثراء ويتقلبون فى النعم، أى اقبلوا على الدنيا وتركوا العلم والعمــل ــ إلا قليلاً ــ ويهجرونه وهو صاحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنادى فيهم : يا أهل دمشق انتم الأخوان فى الدين والجيران فى الدار والانصار على الأعداء من يمنعكم من مودتى وانمــا مؤونتــى علــى غيركم، مالى أرى علماؤكم يذهبون وأرى جهالكم لا يتعلمون واراكم قد اقبلتم على ما تكفل لكم به وتركتم ما أمرتم به إلا أن قوماً قد بنوا شديداً وحملوا كثيراً وأملوا بعيداً، فأصبح بنيانهم قبوراً واملهم غروراً...(٨١)

ومر أبو الدرداء برجل مذنب والناس تسبه. فغضب وقال لهم : أرايتم لو وجدتموه فى قليب. الم تكونوا مستخرجيه. قالوا : نعم قــال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم. فسألوه : ألا تبغضه؟ قــال انما ابغض عمله فإذا تركه فهو أخى.(٨٢)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا مقام صوفى حقيقى، كما يرى الاستاذ الدكتور النشار (٨١) بالإضافة إلى أنه يدل على فتوة صوفية تتمثل فى الصفح عن الأخوان.

وهكذا نجد أن بيئة الشام كانت مترفة منعمة، كان اهلها يتبارون فى الثراء والنعم والاقبال على الدنيا وزخرفها.

وحقاً أن معاوية اشترى رؤساء القبائل، وغمرهم بالأموال وافسد ذمم البعض وضمائرهم، حتى عبأوا الجيوش يحاربون فى سبيله، او فى سبيل اطماعه(٨٤). ولكن هذا الفساد لم يمنع أبداً صوت الحق من أن يدوى عالياً فى وجه الظلم. فرأينا الارهاصات الأولى للفتوة فى مدرسة الشام، تتمثل فى موقف بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد اتضحت هذه الفتوة غاية الوضوح فى جماعة ... بالإضافة إلى الدعوة للزهد، والصفح عن الأخوان.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أم إبن جبير، فى ر... ذكر أنه وجد فى دمشق حوالى سنة ٥٨١هــ جماعة من السنيين ... الفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية وكانوا حرباً عل... بالفتوة وأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخص... ولا يرون ان يستعدى أحد منهم فى نازله تنزل به، ول... مواهب عجيبة، وإذا أقسم احدهم بالفتوة بر بقسمه، وه... الروافض أينما وجدوهم، وشأنهم عجيب فى الأ... والا...).

وهنا نجد أنفسنا أمام جماعة ظهرت فى دمشق ... أنفسهم بأهل الفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية، و... أنهم من أهل السنة وانهم كانوا حرباً على الشيعة، و... منهم. ولا نعلم إن كان هؤلاء من الصوفية أ...

وإذا كنا قد عرفنا ان فتيان الصوفية كان اهتمامهم الأكبر منصباً على الجوانب المعنوية من الفتوة، وانهم ذهبوا فى هذا الأمر إلى أبعد مدى. بينما وجدنا هذه الطائفة يغلب عليها الجانب المادى وان اشتركوا مع فتيان الصوفية فى بعض الجوانب المعنوية للفتوة.

فإننا نرى أن هذه الفرقة ـ النبوية ـ تميل إلى العيارين والشطار أكثر من ميلها إلى فتيان الصوفية.

ولما كان بحثنا ـ فى هذه الفقرة ـ منصباً على الفتوة الصوفية فى مدرسة الشام فإننا نكتفى بهذا الجزء عن الارهاصات الأولى للفتوة فى هذه المدرسة حتى يتسنى لنا أن نتعرف على بعض الفتيان، والتى تتمثل فيهم روح الفتوة الصوفية.

عمر بن عبد العزيز(ت ١٠١هـ)

من صلب بنى مروان ظهر " عمر بن عبد العزيز" فتـــى بنـــى أمية، بل فتى الإسلام فى عصره ذلك لأنه عاش فى زمـــن ســـاد فيـــه الفساد والفسق، وتفشى فيه الخداع والكذب والخيانة، فلا مبالغة إذا قلنا عن عمر بن عبد العزيز أنه فتى الاسلام فى عصره.

فقد كان وحيد زمانه فى عفته وعفافه، وفريد عصره فى صدقه وفضله، ودماثة خلقه، تولى خلافة المسلمين ســـنوات يســـيرة فـــافتقر واغناهم وعاش حياة الزهد ليضرب المثل الأعلى والقـــدوة الصالحـــة للولاة والحكام، بالإضافة للرعية والمحكومين، حتى اصبح فى النـــاس علماً من اعلام الاسلام واماماً فى الورع والتقوى وعارفاً بالله جامعـــاً بين الحكم والحكمة، خاف الله فأمنته المخلوقات ورجا الله فلم يخف من أحد سواه حاسب نفسه حساباً عسيراً. وراقب ما يدخل إليها وما يخرج منها فكان نعم الخليفة الورع الصالح.(٨٦)

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تحلت بكثير من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، تلك الخصال والصفات التى تكون فـــى مجموعـــها صفات الفتوة كما عرفتها الصوفية. ولا غرابة فى هذا خاصة اننا أمام فتى مؤمن تربى فى مدرسة الاخلاق الاسلامية، فـــألزم نفســـه باتبـــاع أوامر الله، واجتناب ما نهى عنه سبحانه، واتخذ من حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأسوة الحسنة، ومن حياة الصحابة رضوان الله عليهم القدوة الصالحة، ولم يفاضل بين أحد من الصحابة كما هو الشأن عند امراء بنى أمية. بل أنه أول خليفة أموى يبطل سب على بن أبـــى طالب على المنابر، فكان الأموى الوحيد الذى مدحـــه الشيعـــة بلســـان

الشريف الرضى منهم(٨٧) الذى مدحه بأشرف الألقاب واسماها فقال عنه "فتى" ولم يقل : أميراً وحاكماً : فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن فتى من أمية لبكيتك

أنت نزهتنا عن السب والقذ ف، فلو أمكن الجزاء جزيتك

ولو انى رايت قبرك لا ستح ييت من أن أرى وما حييتك(٨٨)

وإذا كان الزهد عند الصوفية هو أن تملك وتهجر، والبعد عن الدنيا، والنظر إليها بعين الزوال لتصغر فى العين فيسهل الاعراض عنها.(٨٩) فإننا نجد أن هذا القول ينطبق تماماً على الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى ملك فهجر خوفاً من أن ينشغل بما أعطى عن العاطى سبحانه وتعالى.

فيروى عنه أنه لما ولى الخلافة خير جواريه وقال : قد نزل بى أمر شغلنى عنكن إلى يوم القيامة، وحتى يفرغ الناس من الحساب. فمن أحبت منكن ان اعتقها اعتقتها، ومن أحبت أن أمسكها على أن لا يكون منى إليها شئ امسكتها فبكين وارتفع بكاؤهن يأساً منه، وخير فاطمة ــ زوجه ــ بين أن تقيم عنده وبين أن تلحق بدار أبيها، فبكيت وعلا نحيبها.

وإذا ما عرفنا ان عمراً كان قبل خلافته يلبس أغلى الثياب والينها فإنه بعد أن ولى الخلافة هجر ذلك وكان يخطب الناس بقميص مرقوع الجيب من يديه ومن خلفه فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أن

الله قد اعطاك، فلو لبست؟ فنكس رأسه ثم قال : افضل القصر عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة.(٩٠)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى يخاف أن يتبع هوى نفسه فيظلمها، فيكثر فى طلب الحظوظ واللذات وينشغل بالدنيا، ومن ينشغل بالدنيا يحجب عن الآخرة ومن يهتم بالخلق يحجب عن الحق.

يقول مالك بن دينار: يقولون مالك بن دينار زاهد، انما الزاهد عمر بن عبد العزيز اتته الدنيا فتركها.(٩١)

ويقول عمر بن عبد العزيز : انما الزهد فى الحلال، وإما الحرام فنار تسعر.(٩٢) لقد زهد عمر بن عبد العزيز فى الحلال فخاف أن يقع فى الحرام وقدوته فى هذا قول أبى بكر الصديق : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام.(٩٣)

وإذا ما تحدثنا عن مظاهر الورع فى حياة عمر بن عبد العزيز نجد أنها كثيرة متعددة نقتبس منها بعض الأمثلة : فيذكر صاحب الحلية أن عمراً أرسل غلامه يوماً ليشوى له قطعة لحم، فأتى بها مسرعاً، فقال للغلام : أنك أسرعت... فقال الغلام : لقد شويتها فى نار المطبخ (يقصد مطبخ المسلمين الذى يقدم فيه الغذاء للمحتاجين) فقال لغلامه : يا بنى كل أنت اللحم فانك رزقتها ولم ارزقها(٩٤)

لقد رفض عمر لورعه أن يأكل طعاماً شوى له فى موقد المسلمين ولم يشو فى بيته مخافة أن يكون فيه شبهة الحرام.

وقيل أنه حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم فقبض على مشامه وقال : انما ينتفع من هذا بريحه وأنه أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.(٩٥)

لقد وصل عمر بهذا القول إلى ذروة الورع لأنه رفض أن ينتفع بأى شئ ولو كان هذا الشئ، رائحة المسك دون سائر المسلمين. والذى منعه من ذلك أن هذا المسك من الغنائم فللمسلمين جميعاً حق فيه فأبى عمر أن يشم وقبض على أنفه تورعاً ومخافة أن يكون فى ذلك شبهة الحرام لأنه استحل لنفسه شئ هو للمسلمين.

ولا يخفى على أحد ورعه عندما كان ينظر فى حوائج المسلمين. فكانت تضاء له الشمعة ــ من بيت المال ــ فإذا فرغ من حاجتهم اطفأها ثم اضاء سراجه ما هذا الورع، هذا الخوف الذى لا حد له... انه ليس الخوف من انسان كائناً من كان.... ان الخائف الورع هنا أمير المؤمنين.... فممن يخاف؟ أنه يخاف من ربه الذى يراه فى كل أمره، فى ظاهره وفى باطنه، لذلك خاف أن يكون هذا الزيت الذى ليس من ماله الخاص ــ ومن مال المسلمين ــ فيه شبهة الحرام.(٩٦)

ومن مظاهر إكرام الضيف فى حياة ابن عبد العزيز ما يحكيه لنا ابن جبوة فقال : سمرت ليله عند عمر بن عبد العزيز فإعتل المصباح فقمت لأصلحه...فأمرنى عمر بالجلوس ثم قام فأصلحه، ثم عاد فجلس..وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز... وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز أن الرجل اللئيم هو الذى يستخدم ضيفه.(٩٧)

ويطول بنا المقام إذا استعرضنا مظاهر الفتوة ــ المعنوية ــ من تواضع ورحمة وعدل واحسان... فى حياة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز انما نكتفى بهذا القدر لبيان فتوته، ومنه يتضح لنا أن مدرسة الشام على الرغم ما احاط بها من فساد وانحلال إلا أنه ظهرت بعض النماذج التى تحلت بالفتوة كانت هذه النماذج نبراساً للفتوة الصوفية فى هذه المدرسة.

أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)

وكان في الشام فتى آخر على طراز عمر بن عبد العزيز. هو أبو سليمان الداراني وهو : عبد الرحمن بن عطية، ويقال عبد الرحمن بن أحمد بن عطية. من أهل "داريا" قرية من قرى الشام (دمشق)(٩٨)

وإذا كان الفتى هو الواقف عند مراسم سيده.(٩٩) فإنه يدرك في حقيقته أنه عبد يأتمر بأمر خالقه سبحانه وتعالى، وينتهي عما نهى عنه، ولكي يدرك الفتى هذه المنزلة عليه بالمجاهدة، والإخلاص في العمل.

وقد أدرك أبو سليمان الداراني حقيقة هذا الأمر لذلك ألزم نفسه بقيام الليل ساجداً لله تعالى يتلو كتابه امتثالاً لقول عز من قائل : "والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً".(١٠٠) وقوله تعالى :"تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً".(١٠١)

ويذكر الدارائي أن أهل الليل على ثلاث طبقات : منهم إذا قرأ متفكراً بكى ومنهم إذا تفكر صاح وراحته في صياحه، ومنهم إذا قرأ وتفكر بهت ولم يصح ولم يدرك سائله. أن الأمر أقوى من التفسير، أنه يتكلم عن خطرات القلوب في المراحل.(١٠٢)

يقول الداراني : من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه. والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له.(١٠٣)

وهنا نجد الغاية التي ينشدها الداراني من قيام الليل، هي نفس الغاية التي يسعى إليها الفتيان، وهي الاخلاص بأعمال السرائر، لأن من أخفى لله تعالى الاخلاص بأعمال السرائر، اخفى لهم الله من الجزاء

نفيس الذخائر. استناداً إلى قوله تعالى : "فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين".(١٠٤)

وإذا كان الفتى عند الصوفية لا يهتم بالخلق حتى لا يحجب عن الحق، فيروى عن أحمد بن الحوارى أنه قال : قلت لأبـــى ســليمان : صليت صلاة فى خلوة فوجدت لها لذة فقال : أى شئ لذك فيها؟ قلت : حيث لم يرنى أحد فقال : انك لضعيـــف حيــث خطــر بقلبــك ذكــر الخلق.(١٠٥)

وإذا ما علمنا أن للفتوة مقام القوة، وان الفتوة ليس فيها شئ من الضعف.(١٠٦) فإنه يتضح لنا قول الدارانى لتلميذه أحمد بن الحوارى : أنك لضعيف أى لم تصل بعد إلى القوة (الفتوة). وإذا كان الضعيف هو الذى يخطر بقلبه ذكر الخلق فإن القوى (الفتى) لا يخطر بقلبه ذكر الخلق ولا يهتم بهم حتى لا يحجب عن الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كان الفتى عند الصوفية هو الذى يؤدب نفســه ويحاســبها ويخالف هواها فإننا نجد الدارانى فى هذا الصدد يقول : ابلــغ الأشيــاء فيما بين الله وبين العبد المحاسبة... ويقول : أفضل الأعمــال خــلاف هوى النفس.(١٠٧)

وأبى سليمان الدارانى شأنه شأن سائر الصوفية وفتيانهم، عرف حقيقة الدنيا وانها زائفة فانية، وانها لو كانت تســاوى عنــد الله جنــاح بعوضة ما سقى الكافر فيها شربة ماء. لذلك خلع الدنيا من قلبه، واقبل بكليته إلى خالقه سبحانه يبتغى رضوانه. وفــى هــذا المعنــى يقــول الدارانى : إذا سكنت الدنيا فى قلب ترحلت منه الآخرة.(١٠٨) ويقــول ايضاً : لكل شئ مهر،ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها.(١٠٩)

وهكذا نجد فى مدرسة الشام فتى آخر على طراز عمر بن عبد العزيز هو أبو سليمان الدارانى، وقد تمثلــــت فتوتـــه فـــى المجـــاهدة والاخلاص فى العمل عن طريق قيام الليل. وعدم الاهتمام بالخلق حتى لا يحجب عن الحق.

ووصف الدارانى من يخطر بقلبه ذكر الخلق بأنه ضعيف أى لم يصل إلى القوة "الفتوة". هذا بالإضافة إلى بعض الخصال الحميدة التى تكون فى مجموعها الفتوة ــ المعنوية ــ عند الصوفيـــة ومنـــها تـــرك الدنيا، وابتغاء الآخرة، ومحاسبة النفس وتأديبها ومخالفة هواها.

مدرسة خراسان

قبل أن نخوض فى الفتوة الصوفية فى مدرسة خراسان، يحسن أن نقرر أن خراسان التى نعنيها هى المنطقه التى تستغرق مجموع مدن، بلخ، ونيسابور ومروالروز، وبيرود ونسا...وغيرها وتقع هذه المنطقة فى ملتقى أفغانستان وايران، أى فى الشمال الشرقى من ايران الحالية.(١١٠)

وجدير بالذكر أن خراسان قد إمتلأت بالمظالم الأموية، وإن الاسلام ذاته لم يمنع الامويين من جباية الجزية من الفرس، وقد ادرك الخليفة العادل "عمر بن عبد العزيز" عيب السياسة الأموية بصفة عامة، ولخراسان بصفة خاصة فكتب لعامله على خراسان الذى اخبره بأن أهلها لا يصلحهم إلا السيف والعصا قائلاً : "بل كذبت، يصلحهم العدل والحق فابسطه بينهم".(١١١)

وكان من نتيجة هذا الظلم الأموى على الخراسانين، أن ظهرت الفتوة فيها إلا أن هذه الفتوة لم تتمثل فى مهاجمة الاغنياء وسلب أموالهم وتوزيع ثرواتهم على الفقراء، كما يفعل الشطار والعيارين. انما تحلت فتوة خراسان بالإيثار والتضحية بالنفس فى سبيل العدل والأخلاق الكريم.

ولهذا فليس غريباً أن نسمع من عبد الله بن المبارك (ت١٨هـ) مساواة الفتى بالقارئ. وكان من رأى عبد الله بن المبارك ان الفرق بين [illegible] القراءة [illegible] القراءة يراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يراد بها الناس ومدحهم (١١٢) وليس معنى هذا أن الفتوة نوع من الرياء [illegible] فيه [illegible] بعد ما تكون عن ذلك. وانما يراد بالفتوة

ـ فى رأى ابن المبارك ـ الاحسان إلى الناس وبعث السرور فى نفوسهم بعدما شاع فى بيئتهم من تعاسة وألم وفاقة، فكان الفتيان الخراسانيون الأوائل عباداً قراء مخلصى الايمان.(١١٣)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الفتوة فى خراسان قد اقتصرت مثلها على الجانب المعنوى، أى أنها اهتمت أساساً بالصفات الخلقية.

وبناء عليه يمكن القول أن الفتوة الصوفية انما وجدت فى خراسان. ولو انصف الجنيد ما قال : الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان. بل قال : الفتوة والصدق بخراسان.(١١٤)

ومن الأمثلة الدالة على أن فتوة خراسان اهتمت اساساً بالصفات الخلقية ما يروية القشيرى، من أنه خرج انسان يدعى الفتوة من نيسابور إلى نسا فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على إيديهم، فانقبض النيسابورى عن غسل اليد وقال : ليس الفتوة أن تصب النسوان الماء على ايدى الرجال.

فقال واحد منهم : أنا منذ سنين ادخل هذه الدار لم اعلم أن امرأة تصب الماء على ايدينا أم رجلاً.(١١٥)

والسؤال الآن من هو الفتى فى هذه القصة، هل هو من لاحظ أن امرأة تصب الماء على ايدى الرجال، فرفض ذلك قائلاً: ليس من الفتوة ان تصب النسوان الماء على ايدى الرجال أم هو صاحبه الذى يدخل الدار منذ سنين وعينه لا تقع على من يصب الماء، ولا يعلم أن كانت امرأة أم رجلاً.

وإننا نرى أن هذا الأخير أكمل فى الفتوة من صاحبه لأنه غض بصره، وترك فضول النظر الذى لا حاجة إليه، إذ من الفضول تمييز الفتى ما فى دار غيره من متاع وخادم...وغيرها.

وإذا ما اردنا أن نعرف ما هى الفتوة ــ فى خراسان ــ فلنستمع إلى أبى حفص النيسابورى حينما اجتمع مشايخ بغداد وسألوه عن الفتوة. فقال : تكلموا انتم فإن لكم العبارة واللسان. فقال الجنيد : الفتوة اسقاط الرؤية وترك النسبة. فقال : ابو حفص : ما احسن ما قلت ولكن الفتوة عندى اداء الانصاف وترك مطالبة الانصاف فقال الجنيد : قوموا يا أحابنا، فقد زاد أبو حفص على أدم وذريته.(١١٦)

وهذا اعتراف واقرار من الجنيد بأسبقية أبى حفص فى ميدان الفتوة، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الجنيد لو انصف لقال :"ان الفتوة والصدق بخراسان".

وإذا ما قارنا بين عبارتى أبى حفص النيسابورى والجنيد، تبين لنا الفرق بين وجهتى نظرهما فى هذه المسألة. فالجنيد يرى الفتوة فى اسقاط الرؤية: أى فى عدم النظر إلى الاعمال نظرة اعتبار وتقدير، وترك النسبة : أى اسقاط العلائق والروابط التى تربط الانسان بأى شئ أو أى موجود غير الله. وعلى ذلك فالفتوة عنده هى الزهد الكامل.

أما أبو حفص فيرى الفتوة فى اداء ما يراه الصوفى انصافاً وعدلاً، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بأنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع : أى أن الفتوة عنده هى التضحية الخالصة (١١٧).

وتأكيداً لذلك يذكر السلمى أن أبا حفص النيسابورى لما أراد الخروج من بغداد شيعه من بها من المشايخ والفتيان، فلما ارادوا أن يرجعوا قال له بعضهم : دلنا على الفتوة ما هى؟ فقال الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً فتعجبوا من كلامه. وسئل أبو حفص : هل للفتى من علامة ؟ قال : نعم من يرى الفتيان ولا يستحى منهم فى شمائله، وافعاله، فهو فتى.(١١٨)

مما سبق يتضح لنا أن الفتوة انما هى نظام أو اسلوب حياة يحياها الفتى الصوفى ويعيشها وليس أقوال نظرية يتحدث عنها ويشرحها، وان هذه الحياة يجب ان يتصف صاحبها بحسن الخلق. وفى هذا الصدد يقول محمد بن الفضل البلخى (ت٣١٩هـ) : الفتوة حفظ السر مع الله على الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخلق.(١١٩)

وتأكيداً على أن الفتوة ما هى إلا اسلوب حياة، وليست مجرد اقوال نظرية، ما كان من حمدون القصار (ت٢٧١هـ) الذى يذكرنا ــ فى فتوته ــ بعمر بن عبد العزيز الذى كان يطفئ شمعة بيت مال المسلمين إذا انشغل بعمل يتصل بشخصه فسار حمدون القصار فى الشوط إلى نهايته فأطفأ شمعة صديق له مات : فقالوا له : فى مثل هذا الوقت يزاد فى السراج الدهن؟ فقال لهم : ان هذا الوقت كان الدهن له، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة.(١٢٠)

وليست هذه مجرد اقوال متفرقة نجمعها من أمهات الكتب لندلل بها على أن الفتوة والصدق بخراسان،وانما نجد هذه الفتوة واضحة جلية عند كثير من رجال هذه المدرسة.

الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول المدرسة التى ينتمى إليها الفضيل بن عياض فالبعض يعتبره من مدرسة خراسان، والبعض الآخر يعتبره من مدرسة مكة، ويدرجه الدكتور الشيبى فى مدرسة الكوفة.

وقد اتى هذ الاختلاف نتيجة اختلاف الناس فى أصل الفضيل بن عياض، فبينما يذهب السلمى إلى أن الفضَيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى ثم اليربوعى خراسانى من ناحية مرو من قرية يقال لها فندين.(١٢١)

يذهب القشيرى إلى أن أبا على الفضيل بن عياض خراسانى من ناحية مرو، وانه ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، ومات بمكة فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة.(١٢٢) ويحسم هذا الأمر ابنه أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض فيقول : أبى فضيل بن عياض ابن مسعود بن بشر يكنى بأبى على، من بنى تميم، من بنى يربوع، من أنفسهم ولد يسمرقند ونشأ بأبيورد والاصل من الكوفة.(١٢٣)

واود أن أصل من هذا إلى أن الرجل كان عربياً،ولكنه عاش باكورة حياته فى خراسان ــ فى بيئتها وجوها ــ وقدم الكوفة، ثم انتقل إلى مكة ــ مجاوراً ــ حتى مات بها. وعلى هذا فإننا نتفق فى الرأى مع من يذهب إلى أن الفضيل من مدرسة خراسان، وذلك لأن سمات هذه المدرسة تنبثق فيه.(١٢٤)

وعن سبب تزهد الفضيل يذكر القشيرى أنه كان شاطراً يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس. وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قول الله تعالى: "ألم يأن

للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله"(١٢٥) فقال : يـــار ب قــد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربه، فإذا فيها رفقة فقال بعضــــهم : نرتحـــل، وقال قوم حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطـــع علينـــا. فتـــاب الفضيل وامنهم، وجاور الحرم حتى مات.(١٢٦)

ويذكر الهجويرى أن الفضيل بن عياض كان في بدايـــة أمـــره عياراً، يقطع الطريق بين مرو، وباورد (ابيورد) وكان يميل كل الميـــل إلى الصلاح، وفى طبعه همة وفتوة بحيث إذا كان فى القافلة امرأة لـــم يكن يحوم حولها ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل وكـــان يترك لكل رجل شيئاً بنسبة رأس ماله. إلى أن جاء وقت خرج فيه تاجر من مرو، فقالوا له : خذ معك حارساً لأن الفضيل على الطريق فقال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة فلا خوف. وصحـــب التـــاجر معه قارئاً، واركبه جملاً ليتلو القرآن ليلاً ونهاراً، إلى أن بلغت القافلـــة مكاناً كان الفضيل يكمن فيه.

واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى :" ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" .فبدت رقة فى قلب الفضيل، واظهرت العناية سلطان ألطافها لروحه فتاب عن ذلك العمل.(١٢٧)

مما سبق نصل إلى أن الفضيل كان فى بدايـــة حياتـــه عيـــاراً شاطراً يقطع الطريق على القوافل إلا أنه كان فى طبعه همـــة وفتـــوة. وهذا الأمر أقرب إلى الصعلكة منه إلى الفتوة. حتى إذا ما تاب عـــن هذا الفعل كان على رأس فتيان الزهاد والصوفية.

فيعتبره ابن العمار، شيخ الفتيان، ويورد له حديثاً عن الرســـول فى الفتوة. قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "ليأتى على الناس

زمان تعدم فيه الفتوة، وتنقضى فيه المروءة وتضيق فيه الاخلاق، ويستغنى الرجل بالرجل،والنساء بالنساء فإذا كان ذلك فانتظروا العذاب صباحاً ومساء".(١٢٨)

ومن اصدق المواقف التى تدل على فتوة الفضيل بن عياض، ما رواه الفضيل بن الربيع (حاجب الرشيد) قال : ذهبت إلى مكة مع هارون الرشيد، فلما حججنا قال لى هارون : اهنا رجل من رجال الله فنزوره؟ فصحبته إلى الفضيل بن عياض، وكان يقيم فى غرفة يتلو القرآن... وعندما تمت المقابلة بين أمير المؤمنين ـ هارون الرشيد والفضيل بن عياض قال له الرشيد : عظنى قال يا أمير المؤمنين قد كان أبوك عم المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ فطلب إليه أن اجعلنى اميراً على قوم، قال صلى الله عليه وسلم "يا عم، بك نفسك" يعنى لأن تكون لحظة فى طاعة الله خير من طاعة الخلق لك ألف عام، لأن الإمارة يوم القيامة ندامة. قال له الرشيد : زد من عظتى. فقال الفضيل ابن عياض : لما نصب عمر بن عبد العزيز للخلافة استدعى سالماً بن عبد الله ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب القرظى رحمهم الله ـ وقال : لقد ابتليت بهذه البلية فما تدبيرى؟ فإنى ارى هذا بلاء مهما يظنه الناس نعمة.

فقال واحد منهم : إذا اردت أن يكون لك الفوز والنجاة غداً يوم القيامة، فأعتبر شيوخ المسلمين كابيك وشبابهم كأخوتك، واطفالهم كأبنائك.... وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك واخاك وولدك فى دارك لأن جميع ديار الإسلام بيتك وأهلها عيالك، فزر أباك، وأكرم أخاك، واحسن إلى ولدك.

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين، أنى أخشى علـــى وجـــهك الجميل أن يبتلى بنار جهنم فاخشى الله تعالى، وأد حقه خيراً من هذا.

وقال له هارون بعد ذلك : اعليك دين؟ قال نعم دين الله علـــى، وهو طاعته، فإذا قضيته نجيتنى من الويل. فقال هارون : أتكلم عـــن دينك للخلق.

فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله إذ لدى منه نعم كثيرة وليس لى منه شكوى حتى اشكوه إلى عباده... وعندئذ وضع هـــارون أمامه صره ذهب وقال له : اصرف هذا فى وجه من الوجوه.

فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين أن عظتى هذه لم تفدك قط ومن هنا اخذت فى الجور وبدأت الظلم. فقال هارون : أى ظلم فعلت قـــال الفضيل : أنا أدعوك إلى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك، أفلا يكون هذا ظلماً؟ فبكى هارون وخرج من عنده وقال : يا فضيل بـــن ربيـــع، أن الملك هو الفضيل.(١٢٩)

لقد أثرنا أن نذكر هذه الرواية على الرغم من طولها كما هـــى، وكما ذكرها صاحب كشف المحجوب، ذلك لأنها دليل على فتوة الفضيل وعلى منزلة الدنيا عند رجال الله ـ الفتيان ـ أمثال الفضيل، كما أنـــها دليلا على صولته فى الدنيا وأهلها وحقارة زينتها فـــى قلبـــه، وتركـــه التواضع لأهل الدنيا مهما كانت منزلتهم، حتى ولو كان أمير المؤمنيـــن ـ من أجل الدنيا إذ ان التواضع الحق انما يكون للخالق سبحانه وتعالى من أجل الفوز بالنجاة فى الآخرة.

ومما لا شك فيه أن التأمل الذاتى فى حياة الفضيل بن عيـــاض وفى كلماته ليبين بوضوح أن الرجل عاش عيشة إيثار ومرؤة وسخاء.

ويتضح ذلك فى قوله "لم يدرك عندنا من ادرك بكثرة صيام ولا صلاة، وانما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر، والنصح للأمة".(١٣٠)

ويقول ايضاً : "لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها ان تصيب ثوبه".(١٣١)

من أجل هذا زهد الفضيل فى الدنيا حتى أنه جعل الرغبة فيها مفتاح كل شر إذ يقول : "اجعل الشر كله فى بيت، وأجعل مفتاحه الرغبة فى الدنيا وأجعل الخير كله فى بيت، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا".

والفضيل بن عياض شأنه شأن فتيان الصوفية يؤثر اخفاء الاعمال، والبعد عن النفاق والرياء. فيقول : "خير العمل اخفاه, وامنعه من الشيطان، ابعده من الرياء".(١٣٢)

ولهذا أثر الفضيل البعد عن الدنيا وزخرفها قائلاً : طوبى لمن استوحش من الناس وانس بربه، وبكى على خطيئته.(١٣٣)

أحمد بن خضروية (ت ٢٤٠هـ)

يقول عنه السلمى : هو أحمد بن خضروية البلخى، كنيته أبو حامد، وهو من كبار مشايخ خراسان. صحب أبا تراب النخشبى وحاتما الأصم، ورحل إلى أبى يزيد البسطامى. وهو من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة وتوفى سنة أربعين ومائتين.(١٣٤)

ويذكر القشيرى أن أحمد بن خضروية كان من كبار مشايخ خراسان، وكان كبيراً فى الفتوة. وقال أبو حفص : ما رأيت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضروية. وكان أبو يزيد يقول : استاذنا أحمد.(١٣٥)

وهكذا نجد أنه اتفقت الاراء ــ من جانب اصحاب الطبقات ــ على ان أحمد بن خضروية من كبار مشايخ خراسان، وانه كان كبيراً فى الفتوة. وسوف نحاول من خلال عرض أقواله وافعاله ان نتعرف على بعض جوانب فتوته.

قال رجل لأحمد بن خضروية : اوصينى فقال : أمت نفسك حتى يحييها.(١٣٦) وهنا تجدر الإشارة إلى أن المقصود بالنفس فى هذه الوصية، انما هى النفس الشهوانية التى تأمر صاحبها بالسوء والفحشاء.

فنفس الأدمى إذا راضها بترك الشهوات، وقطعها عن الملذات حتى تذل له وتنقمع، فلا تتحكم فيه بشهوة ولا تطالبه برغبة وانما تكون سلسة منقادة للقلب والعقل، مستقيمة فى سيرها على حد ما أمرت به دون زيادة أو نقص.

أما إذا لم يؤدب العبد نفسه، ولم يعودها على رفض الشـــهوات المطلقة لها حتى تذل وتسكن لم يملكها عند ذكر ما يعرض لـــها، ولـــم يقدر على تسكينها.

وهنا يصبح عرضة عند جهاده لنفسه لأن يغلب أو يغلب ولذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً فى شـــهوة واحـــدة، وهـــذا هـــو التخليط، وهو ناشئ من بقاء الشهوة حية فى النفس فتتحكم كلما مكنتـــها الفرصة، لذا ينبغى العمل على إماتة هذه الشهوة.(١٣٧)

وعلى هذا يجب أن نفهم أن موت النفس ـ فـــى وصيـــة ابـــن خضروية ـ لا يعنى ان الانسان يصبح ولا نفس له، انما يعنى تـــأديب النفس الشهوانية الأمارة بالسوء أى أنه بدلاً مـــن أن تكـــون الشـــهوة مسيطرة ومتحكمة فى مشاعر الإنسان وتفكيره، تصبح ذلولـــة منقـــادة لقلبه وعقله، بدلا من أن تكون متجهة اتجاهاً دنيوياً حراً، تصبح موجهة توجيهاً دينياً مقيداً.

وإذا كان الجود والكرم سمة ـ هامة ـ من ســـمات الفتيـــان. فيذكر الهجويرى أنه عندما جاء يحي بن معاذ الرازى من الـــرى إلـــى نيسابور، وقصد بلخ، اراد أحمد بن خضروية ان يدعوه، فشاور فاطمة ـ زوجه ـ فيما ينبغى لدعوة يحي بن معاذ. فقالت : يلزم كثير مـــن البقر والخراف والحوائج والتوابل، وكثير من الشمع والعطر.. وكل من هذا يلزم أيضاً ذبح عشرين حماراً. فسألها أحمد : مـــا معنـــى ذبـــح الحمير؟ قال : حين يكون كريم ضيفاً ببيت كريم أما يجب أن تعـــرف كلاب الحى ذلك.؟(١٣٨)

كذلك يروى أن أحمد بن خضروية استقرض من رجل مائة ألف درهم، فقال له الرجل : أليس انتم الزهاد فى الدنيا؟ ما تصنع بهذه الدراهم؟ قال : اشترى بها لقمة فاضعها فى فم مؤمن لا اجترئ أن أسأل ثوابه من الله تعالى. قال الرجل : لم؟ قال : لأن الدنيا كلها لا تزيد عند الله جناح بعوضة، وما مائة ألف درهم فى الدنيا، من جناح بعوضة؟ لو أخذتها، فطلبت بها شيئاً ما الذى تعطى بها؟ والدنيا كلها لها هذا القدر.(١٣٩)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى من أهل الآخرة، فى مجادلة مع انسان من أهل الدنيا يوضح الفتى فى هذا الموقف أن المال لا قيمة له ان لم يوسع به على اخواننا فى الإيمان ولا ننتظر ثواباً ولا شكوراً عن هذا العمل. ذلك لأن الدنيا وما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فما قيمة المال، إذا لم ينفقه الفتى على اخوانه فى الإيمان وهو فى حاجة إليه.

اضف إلى هذا أن موقف أحمد بن خضروية فى هذا الصدد يوضح أن الفتى قد يقترض حتى يوسع على اخوانه فى الإيمان. على العكس من العيار والشاطر الذى قد يلجأ إلى السرقة وقطع الطريق ويسلب الاغنياء أموالهم بحجة توزيعها على الفقراء والمحتاجين ويذكر الدكتور الشيبى ـ نقلاً عن حلية الأولياء ـ أن أحمد بن خضروية قد اضاف دليلاً آخر إلى ما كان الفتيان يتصفون به من تضحية وانكار ذات بمجيئه بزوجه إلى ابى يزيد البسطامى ليزوجها اياه.(١٤٠)

إلا أننا نجد أن ما يذكره الدكتور الشيبى نقلاً عن صاحب الحلية لا يتفق مع اخلاق الفتيان كما أنه لا يتفق مع ما يرويه الهجويرى الذى

يذكر : أن أحمد بن خضرويه عندما قصد زيارة أبو زيـــد البســطامى رافقته فاطمة ـــ زوجه ـــ ولما أقبلت على ابى يزيد رفعت البرقع عن وجهها وكانت تتحدث معه بجرأة فتعجب أحمد مـــن ذلــك، واسـتولت الغيرة على قلبه، فقال : يافاطمة أى جِراءة تلك التى كانت لك مع أبى يزيد؟

فقالت : لأنك محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى. والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج إلى. وكانت دائماً جريئـــة مع أبى يزيد، حتى وقعت عينه يوماً على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء فقال : يا فاطمة لم الخضاب بالحناء؟ فقالت : يا أبا يزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدى وحنائى، والآن وقد وقعت عينيك علـــى يدى فقد صارت صحبتنا حراماً.(١٤١)

بالإضافة إلى هذا فقد قال أبو يزيد عن فاطمـــة : مـــن أراد أن ينظر إلى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظـــر إلـــى فاطمة.(١٤٢)

وإذا كان الفتى من كانت أعماله سراً بينه وبين خالقه، ولا يجب أن يطلع عليها أحد سوى الحق تبارك وتعالى فقـــد أكـــد أحمـــد بـــن خضروية على هذا المعنى فى قوله : بلغنى أنه استأذن بعض الأغنيـــاء على الزهاد فأذن له فرأه فى رمضان ـــ يأكل خبزاً يابساً بملح فرجـــع إلى منزله، وبعث إليه ألف دينار ـــ فرده،وقال : ان هذا جـــزاء مـــن أفشى سره إلى مثلك.

لهذا عندما سئل أحمد بن خضروية عن أى الأعمـــال أفضـــل، قال: رعاية السر عن الالتفات إلى شئ سوى الله تعالى.(١٤٣)

معنى هذا أن السر هو ما لا يجوز أن يعلمه غير الله، أو يطلـــع عليه غيره لأنه سبحانه وتعالى انفرد به دون الخلق. ولـــهذا قـــالوا : صدور الأحرار قبور الاســـرار وقـــالوا: لـــو عـــرف زرى ســـرى لطرحته.(١٤٤)

أبو تراب النخشبي(ت٢٤٥هـ)

لقد أثرنا في هذا الجزء من البحث أن نستعرض أراء وأقـــوال أبو تراب النخشبي ذلك لأننا وجدنا أن كتب الطبقات قد أجمعت على أن أبا تراب النخشبي من جلة مشايخ خراسان، ومن المذكوريـــن بـــالفتوة. يقول عنه السلمي :

أبو تراب النخشبي،واسمه عسكر بن حصين، ويقال : عسكر بن محمد بن حصين وهو من جلة مشايخ خراسان، والمذكوريـــن بـــالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد والورع.(١٤٥) ويقول عنه الشعراني : هـــو من أجلة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والفتوة والزهـــد، والتوكل، والورع.(١٤٦)

بالإضافة إلى هذا فإننا سنجد ــ عند الحديث عن الملامتية ــ أن كثيرا من أراء أبي تراب النخشبي كان لها أثراً واضحاً، وصداً واســعا عند كثير من الملامتية، وخاصة عند تلميذه حمدون القصار، لاسيما في مسائل التوكل، والنهي عن لبـــس المرقعـــة وفـــي معنـــى الصـــدق، والاخلاص(١٤٧) وغير ذلك من المعاني التي تدخـــل ضمـــن فتـــوة الصوفية.

واذا اعتبرنا التوكل من السمات التي يتحلى بها الصوفية عامـــة وفتيانهم خاصة، فنريد أن نعرف ما هو التوكل عند النخشبي.؟

قال أبو تراب النخشبي : التوكل طمأنينة القلب إلـــى الله عـــز وجل.(١٤٨)

وسئل أبو تراب عن التوكل فقال : التوكل، طرح البدن في العبودية،وتعليق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر، وان منع صبر راضياً موافقاً للقدر.(١٤٩)

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن التوكل مقام شريف، وقد أمر الله تعالى بالتوكل وجعله من صفات المؤمنين، وذلك في قوله تعالى:"وعلى الله فليتوكل المؤمنون".(١٥٠)

وقال تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه".(١٥١)

ومن ذلك نصل إلى أن التوكل الذى قصده النخشبى، هو انتهاء القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة، وسائر الاسباب الظاهرة، لأنه فى هذه الحالة يفنى العبد عن التدبير ولا يجد له حولاً ولا قوة إلا بالله، ولا يشعر إلا بالقدرة الالهية والارادة الربانية.(١٥٢)

فإذا ما اطمئن القلب إلى الله، انقطع العبد إلى الله عز وجل، وكفاة مولاه كل مؤنه ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها.

وإذا كان الفتى الصوفى يرى أن الفقر سر الله عنده فإذا ظهر عليه فقره منه فإنه فى هذه الحالة يكون غير أمين على الاسرار التى اودعها الله عنده.

لذلك قال أبو تراب النخشبى : الفقير قوته ما وجد،ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل(١٥٣) ويفسر الهجويرى هذا المعنى للفقر قائلاً : وقد بقى أهل العلم جميعاً فى بلاء هذه الثلاثة ـ القوت، واللباس، والمسكن ـ لأنهم يتكلفون وهذا من جهة المعاملة ولكن من وجهة التحقيق فغذاء الفقير الوجد، ولباسه التقوى، ومسكنه الغيب(١٥٤)

لأن الله تعالى يقول "وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا"؟(١٥٥) وقال عز من قائل : "وريشا ونباس التقوى"(١٥٦)

وعلى هذا يمكن القول أن الفقر ليس معناه ــ عند فتيان الصوفية ــ قلة المال، بل الفقر هو الحاجة، والحاجة لا تكون إلا لله تعالى. بمعنى أن الفتى ــ وإن كان غنياً فإنه يشعر رغم غناه وثروته بحاجته وبعجزه وبفقره إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا احتاج إلى غيره، سبحانه، لم يعد فقيراً، فشرط الفقر، اذن هو حاجة العبد إلى الله تعالى على الدوام، لأنه ليس هناك غنى إلا الله تعالى. وقد أكد أبو تراب النخشبى على هذا فى قوله : " حقيقة الغنى، أن تستغنى عمن هو مثلك وحقيقة الفقر، ألا تفتقر إلى من هو مثلك.(١٥٧)

وفى هذا القول يتضح لنا أن الغنى هو الاستغناء عن الناس، والفقر هو ألا يحتاج العبد إلى من هو مثله من الخلق، إنما حاجة العبد إلى خالقه ومولاه أما إذا كان الفقر يعنى قلة المال، فهنا يجب على الفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، فيكون قوته ــ كما قال النخشبى ــ ما وجد ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل فإذا ما كان الفقير قانعاً، ومنقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم فيكون التفاته، وإقباله إلى خالقه سبحانه.

وقد أكد النخشبى على هذا بقوله : القناعة أخذ القوت من الله عز وجل(١٥٨) بالإضافة إلى هذا فقد نهى أبو تراب النخشبى أصحابه

عن اظهار الفقر بلبس المرقع من الثياب قائلاً : من لبس منكم مرقعة فقد سأل.(١٥٩)

وقد أكد النخشبى فى هذا القول على معنيين الأول : ستر الفقر، لأنه سر الله عند العبد، ولا يجب على العبد أن يبوح بسر مولاه.

الثانى : أن العبد لا يسأل إلا الله تعالى، وذلك لأنه محتاج دوماً إلى خالقه سبحانه ولا يتأتى ذلك إلا بحفظ الهم حيث قال النخشبى : احفظ همك، فإنه مقدمة الاشياء فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك من افعاله واحواله.(١٦٠)

وهنا تجدر الاشارة إلى أن هم العبد هو سره، وسره هو همه، فلا فرق بينهما.(١٦١) فإذا ما حفظ العبد همه ـ أى سره ـ تجرد من جميع الأشغال، وتفرد بمراقبة ذى الجلال فلا تعارضه خواطر قاطعة ولا عوارض مانعة عن التوبة والاقبال والقرب وهو بذلك بمثابة المناجى لله، والمحدث فى الله، والطائع فى طريق الله.(١٦٢)

هوامش
الفصل الرابع

(١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٠٥

(٢) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٣٠٨

(٣) سيف بن عمر الضبى الأسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٢٢، ١٢٣

(٤) سيف بن عمر الضبى الاسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٣٠

(٥) المرجع السابق ص ١٣٠

(٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٠٦

(٧) المرجع السابق ص ١٠٧

(٨) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٢ ص ١٤٩

(٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٠

(١٠) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٩

(١١) سورة البقرة : الأيتان ١٥٦، ١٥٧

(١٢) سورة المدثر : الآية ٤٢

(١٣) سورة التوبة : الآية ١٠٢

(١٤) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٩٨.

(١٥) القشيرى : الرسالة ص ٦٨، ٦٩.

(١٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٩

(١٧)د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٢ ص ١٢٤

(١٨) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٣٧٠

(١٩) المرجع السابق ص ٣٧٤

(٢٠) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٢٨

(٢١) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٩٤

(٢٢) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص ٢٨١

(٢٣) أبو نعيم الاصبهانى : حليه الأولياء جـ ٢ ص ٢١٣١، ١٣٢

(٢٤) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء : جـ٢ ص ١٣٣٣، ١٣٤

(٢٥) المرجع السابق : ص ١٣٧، ١٣٨

(٢٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٩٤

(٢٧) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥

(٢٨) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٦

(٣٠) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ٥٧

(٣١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٣٧

(٣٢) سورة الحشر : الآية ١٨

(٣٣) الغزالى : مكاشفة القلوب ص ٣٢١، ٣٢٢

(٣٤) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ١٥٦

(٣٥) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٣٣

(٣٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٦٢

(٣٧) أبو نهيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ٢ ص ٣٤٥ ــ ٣٤٧

(٣٨) السلمى : رسالة الملامتية ص ١١٧

(٣٩) السلمى : رسالة الملامتية ص ١٢٢

(٤٠) المرجع السابق : ١١٣

(٤١) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٤

(٤٢) أبو النعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٤٩

(٤٣) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠١

(٤٤) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢١٧

(٤٥) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٣٠٣

(٤٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص٣٧

(٤٧) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٣٥

(٤٨) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ص ٣٠٣

(٤٩) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٨

(٥٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٤٠

(٥١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢٣٩

(٥٢) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٥٧

(٥٣) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٠

(٥٤) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٧

(٥٥) المرجع السابق : ص ٢٦٣

(٥٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠٣

(٥٧) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٢

(٥٨) د. حسن الشرقاوى : الحكومة الباطنية ص ٢٤٠

(٥٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٢

(٦٠) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢٤٢

(٦١) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٤١

(٦٢) المرجع السابق : ص ٤٢

(٦٣) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٢

(٦٤) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٢١

(٦٥) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٦) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ٧٤

(٦٧) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٨) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٩) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٣٧٠

(٧٠) المرجع السابق : ص ٣٧٩

(٧١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٢٤٨، ٢٤٩

(٧٢) سورة ق : الآية ١٨

(٧٣) الغزالى : الاحياء جـ ٣ ص ١١٠

(٧٤) المرجع السابق : ص ١١١

(٧٥) المرجع السابق : ص ١١١

(٧٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٢١

(٧٧) القشيرى : الرسالة ص ١٤

(٧٨) تاريخ الطبرى : جـ ٣ ص ٢٠٣

(٧٩) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٨٩

(٨٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٤

(٨١) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٦٢

(٨٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢١

(٨٣) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٢٩١

(٨٤) المرجع السابق : ص ٢٨٥

(٨٥) رحلة ابن جبير : تحقيق د. حسين نصار ص ١٦٩

(٨٦) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٧٢

(٨٧) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ص ٣٤٠

(٨٨) المرجع السابق : ص ٣٤٠، ديوان الشريف الرضى ص ١٦٩، ١٧٠

(٨٩) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١٩٢

(٩٠) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ٢٩

(٩١) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٥ ص ٦٢٨

(٩٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٩

(٩٣) القشيرى : الرسالة ص ٥٨

(٩٤)الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٥ ص ٣٢٤

(٩٥) القشيرى : الرسالة ص ٥٩

(٩٦) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٧٦

(٩٧) المرجع السابق ص ١٩٤٠

(٩٨) السلمى : : طبقات الصوفية ص ٧٥ تحقيق نور الدين شريبة

(٩٩) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الرابع ف ٤٣ ص ٥٨

(١٠٠) سورة الفرقان : الآية ٦٤

(١٠١) سورة السجدة : الآية ١٦

(١٠٢) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٣٠٩

(١٠٣) القشيرى : الرسالة : الآية ١٧

(١٠٤) سورة السجدة : الآية ١٧

(١٠٥) السلمى : طبقات الصوفية ص ٧٩

(١٠٦) ابن عربى : الفتوحات السفر الرابع ف ٣٦ ـ ٣٨ ص ٥٣،٥٤

(١٠٧) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨٠، ٨١

(١٠٨) المرجع السابق : ص ٧٧

(١٠٩) المرجع السابق : ٨١

(١١٠) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٣٤٥

(١١١) المناوى : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية جـ١ ص ١٤٣

(١١٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ٢ ص ١٧٢

(١١٣) د. الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٥٣٥

(١١٤) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٩

(١١٥) القشيرى : الرسالة ص ١١٤

(١١٦) السلمى : طبقات الصوفية ص ١١٧، ١١٨

(١١٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٧

(١١٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١١٨

(١١٩) المرجع السابق : ص ٢١٦

(١٢٠) القشيرى : الرسالة ص ٢٠

(١٢١) السلمى : طبقات الصوفية ص ٦

(١٢٢) القشيرى : الرسالة ص ٩

(١٢٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨

(١٢٤) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٣٩٣

(١٢٥) سورة الحديد : الآية ١٦

(١٢٦) القشيرى : الرسالة ص ٩

(١٢٧) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠٨

(١٢٨) ابن العمار : الفتوة ص ١٣٣، ١٣٤

(١٢٩) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣١٠، ٣١١

(١٣٠) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠

(١٣١) القشيرى : الرسالة ص ١٠

(١٣٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٣

(١٣٣) المرجع السابق : ص ١٤

(١٣٤) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٣

(١٣٥) القشيرى : الرسالة ص ١٨

(١٣٦) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٥

(١٣٧) د. عبد الفتاح بركه : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ٢ ص ١٩٨ ـ ١٩٩

(١٣٨) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٣٣

(١٣٩) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٤

(١٤٠) د. الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٥٣٦

(١٤١) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٣٢

(١٤٢) المرجع السابق : ص ٣٣٣

(١٤٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٦

(١٤٤) القشيرى : الرسالة ص ٤٩

(١٤٥) السلمى : طبقات الصوفية ص ٧

(١٤٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٧١

(١٤٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٦

(١٤٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥٠

(١٤٩) الطوسى : اللمع ص ٧٨

(١٥٠) سورة المائدة : الآية ١١

(١٥١) سورة الطلاق : الآية ٣

(١٥٢) د.ـحسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣

(١٥٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٤٩

(١٥٤) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٣٤

(١٥٥) سورة الجن : الآية ١٦

(١٥٦) سورة الأعراف : الآية ٢٦

(١٥٧) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٥٠

(١٥٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١

(١٥٩) القشيرى : الرسالة ص ١٨

(١٦٠) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١

(١٦١) الطوسى : اللمع ص ٤٢٥

(١٦٢) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣

الفصل الخامس
بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية

تعريف الفروسية الغربية ونشأتها

قد يرى البعض أن الحديث عن الفروسية الغربية قد يخرج بنا عن موضوع البحث، إلا أن هذه الجزئية لابد منها لاستكمال عناصر موضوع البحث خاصة بعد أن تتبعنا الفتوة وعرفنا أن جذورها ممتدة إلى ما قبل الإسلام وعندما جاء الإسلام استطاع أن يهذب الفتوة الجاهلية، كما أنه أشاد بالخصال الحميدة والصفات الرشيدة التى يجب أن يتحلى بها الفتيان معبراً عن هذه الصفات "بمكارم الأخلاق".

ووجدنا أن لفظ فتى قد ورد فى كتاب الله عز وجل فى أكثر من موضع، كما أنه جاء وصفاً لبعض الأنبياء.

وعندما ظهرت المدارس الصوفية استطاعت أن تصبغ الفتوة بصبغتها حتى اصبحت صفات الفتوة جزءاً من تعاليم الصوفية. وان شيوخ الصوفية قد استعملوا كلمة "الفتوة" وأكثروا منها فى احاديثهم.

واتضح لنا من خلال البحث أن هناك خلطاً بين لفظ الفتوة ومعناها وبعض الألفاظ الأخرى ومدلولاتها وخاصة لفظ عيار أو شاطر.

وانتهينا إلى أن الملامتية قد فسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة واطلقوا على انفسهم اسم الفتيان أو الرجال.

بعد هذا نجد لزاماً علينا أن نتطرق إلى بحث الصلة بين الفتوة والفروسية وقد حفزنى إلى ذلك ما رأيته ــ ورآه غيرى من قبل ــ من

أوجه الشبه العديدة بين الفتوة العربية والفروسية الغربيـــة. وان فتيـــان العرب من المسلمين وفرسان أوروبا قد تلاقوا فى أكثر من ميدان.

ومما لا ريب فيه أن البحث فى هذا الموضوع يتطلب الاجابـــة على كثير من التساؤلات منها على سبيل المثال : هل ثمة صلـــة بيـــن الفتوة العربية والفروسية الغربية؟ وإذا كنا قد ذكرنا أن الفتوة العربيـــة تقوم على جانب مادى وآخر معنوى وانهما بمثابة وجهى العملة، فـــهل الفروسية الغربية كذلك أم أنها أخذت جانب دون الآخر؟!

وإذا كنا قد عرفنا الفتوة العربية نشأتها وتطورها، فما هو أصل الفروسية الغربية ونشأتها وتطورها؟

عرفت الفروسية الغربية بأنها نظام عسكرى اقطـــاعى خـــاص بالنبلاء وظهر فى العهد الاقطاعى. وثمة نوع أخر ظهر أبان الحروب الصليبية، يجمع بين الدين والحرب، ثم نوع ثالث ظـــهر بعـــد انتـــهاء الحروب الصليبية يختلف فى اهدافه وغاياته عن النظامين، وإن لم يعمر طويلا.(١)

ومن هذا يتضح لنا أن الفروسية الغربية مرت فى مراحل ثلاث

المرحلة الأولى

لقد أدت الحروب المستمرة بين امراء الإقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى. إذ كان لابد للأمير ـ الاقطاعى ـ من جند مدربين يحمونه واسرته ويحافظون على املاكه، ويردون عنـــه غارات منافسيه، واضطر الامراء أول الأمـــر إلـــى اســـتخدام جنـــود مرتزقة، انحدرت الجندية على ايديهم إلى وحشيـــة فعمـــد هـــؤلاء ـ

الأمراء ـ إلى قوانين ترفع من مستواهم الخلقـــى، واهمـــها، حـــرص الفارس على شرف الفروســـية، ويتمثـــل فـــى الاخـــلاص والطاعـــة والشجاعة.

لقد كانت أول واجبات الفارس في العهد الاقطاعى هو أن يحمى سيده وكان يعد اعداداً خاصاً كى يكون فارساً، فينتزع وهو فى السادسة من عمره من بين احضان النساء، ويرسل إلى حاشية أحد الأمـــــراء أو حاشية الملك ليتلقى تعاليم الفروسية. ويبتدئ من المراتب الدنيا، فيقـــوم أول الأمر بأعمال منزلية، ويراقب النبلاء فى حركاتهم، وأدابهم وشتى مناحى سلوكهم... بعد ذلك يصحب سيده تابعاً له فى الصيد وفى ميدان القتال، وفى المباريات الخاصة، وقد يشترك معه فى كل هذا ويساعده. حتى إذا ظهرت مواهبه وتم استعداده وصار فى سن تؤهله لأن يكـــون فارساً، اقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان.(٢)

وكانت حفلة التلقيب بسيطة فى أول الأول، ولكنها أصبحت فيما بعد دينية إذ كان على الشاب أن يقضى ليلة الحفلة يتعبد فـــى الكنيســـة وفى الصباح يحضر الصلاة ثم يتقدم أحد الفرســـــان ويضربـــه أثنـــاء الركوع على رقبته ضربة شديدة بعرض السيف ويقول له : قم فـــأنت فارس. ثم يقسم أن ينصر الدين ويحترم الكنيسة، ويدافع عنها ويقـــاتل الوثنين والكفرة ويأخذ بيد الضعفاء ويحترم المرأة.

غير أنه نشأ عن هذا النظام طبقة ذات ميول ارستقراطية فكـــان الفرسان يكرهون العامة ويحتقرونهم، وقلما كانوا يجردون سيفاً لإغاثة بائس ملهوف، وأدى ذلك إلى إغفال حقوق الضعفاء والتشيع للمرأة إلى حد الجنون.

فلم تكن عواطف الفروسية أو بـــالأحرى المثـــل العليـــا التـــى يتشدقون بها دارجة إلا بين أعضاء الطائفة ــ طائفة النبلاء ــ كما أنها لا توسع بأية حال لتشمل اشخاصا أدنى منزلة.(٣)

المرحلة الثانية

عند ما شن الغرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية، كان هؤلاء النبلاء ــ فرسان العهد الاقطاعى ــ هم عماد تلك الحملات يخرجون من بلادهم، ومعهم جنود المدربون علـــى دفعـــات لغزو الشرق. وكان من الطبيعى أن تبارك الكنيسة هذا العمل.

وإلى جانب هؤلاء الفرسان ظهرت اثناء الحروب الصليبيـــة ــ نظم الفرسان والرهبان تلك النظم التى جمعت بين الدين والحرب، وكان الغرض من هذه النظم حماية حجاج بين المقدس والسهر علـــى راحـــة الجرحى ومساعدة الفقراء... إلى غير ذلك من أعمال البر والإحسان.

وكانت أولى الجماعات التى اتخذت هذا النمـــط هـــى جماعـــة الداوية، وكان اللقلب الرسمى لها هو

"فرسان المسيح" Milites Christi

كما عرفوا أيضا "بفرسان المعبد" Milites Templi

وعلى الرغم من أن جماعة القديس يوحنا اللذين عرفوا بفرسان الاسبتارية The Hospitallers ، وكانت أسبق من حيث النشأة إلا أن تحولها نحو الطابع العسكرى كان بطيئا.(٤)

وقد وجدت أفكار هذه الجماعات القبول فى الغرب الأوروبـــى فتنافس الجميع فى منحها الامتيازات والعطايا فانتشرت من الأراضـــى المقدسة إلى أوروبا حتى صارت قوة هائلة.

وكان لاستقلالها وتبعيتها المباشرة للبابوية أثره على تطورهـــا وانتشارها السريع دون ايه عقبات تعوق طريقها، وظهر دورهــا فــى الدفاع عن الكيان الصليبى ليس فى المملكة فحســب بــل فــى بقيــة الامارات.

وبمرور الوقت ضعف الامراء والنبــلاء (فرســان الاقطــاع) واصبحت هذه الجماعات هى القوة الوحيــدة القــادرة علــى مواجهــة الهجمات الاسلامية التى اشتدت ضراوتها كما كان لــها اهميتـها فـى الربط بين الصليبين فى الاراضى المقدسة والغرب الاوروبى.(٥)

وإلى جانب الجماعتين السابقتين ظــهرت جماعــة "الفرســان التيوتون" وهى طائفة عسكرية دينية ألمانية تأسس عام ١١٩٠ ـم بالبلاد المقدسة على نمط فرسان الهيكل (المعبد) والمستشفى (الاسبتارية).(٦)

وكان لهذه الجماعة شهرة واسعة بسبب انتشارها الواسع والصفة الدولية التى اتسمت بها ودورها فى نشر المسيحية على شــاطئ بحــر البلطيق، هذا إلى جانب ما امتلكته من ثروات، وذلك المعيــن الــذى لا ينضب من الرجال الذين كرسوا انفسهم لخدمة أهدافها ــ وخاصة فــى المراحل الأولى من نشأتها ــ وكان لذلك كله أثره فى جعلها فوق رأس تلك المملكة الصليبية، بل وفوق رجال الكنيسة اللاتينية نفسها التى كانوا ينتسبون إليها اسما فقط.(٧)

وجدير بالذكر أن الفروسية الغربية كانت فى أوجها فــى ذلــك العهد (أثناء الحروب الصليبية) ولكنها انتهت عندما استرد المســلمين عكا سنة ٦٩١هـــ ــ ١٢٩١م من يد الصليبيــن علــى يــد الســلطان الأشرف خليل بن قلاوون.(٨)

المرحلة الثالثة

وفى هذا الطور من أطوار الفروسية الغربية نجد أنها تحولت إلى فروسية ضالة لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة. وخاصة بعد أن رجع الفرسان الذين قاتلوا فى الشرق، وتطور أوروبا وابتداء نهضتها الحديثة، فأخذ هؤلاء الفرسان يجوبون البلاد بحثا عن المغامرات نادبين أنفسهم لأداء الخدمات ومساعدة الضعفاء والأخذ بيد المنكوبين وباحثين قبل كل شئ عن الحب ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الاشراف.(٩) ونلاحظ أن أهم خصائص الفروسية فى تلك المرحلة، الحب، واحترام المرأة، والرغبة فى المغامرات، والسخاء والمرح وقت الخطر...

وهنا تجدر الاشارة إلى أن ما تتشدق به الفروسية الغربية بالنسبة للحب العذرى، واحترام المرأة انما هو مجرد تسلية أدبية ظهرت فى أحاديث الطبقات الارستقراطية.

بينما الواقع يكذبه باستمرار، فقد صبت اللعنات من جانب الدين على الحب بكل مظاهره ونواحيه بوصفه الخطيئة التى يتم بها تدمير العالم.

والحق أن الأدب فى العصور الوسطى يظهر أقل القليل من الشفقة الحقيقية على المرأة، والقليل من الرحمة لضعفها والأخطار والآلام التى يدخرها لها الحب واتخذت الشفقة شكلا مجمدا أو خياليا فى القصص العاطفية للفارس الذى ينقذ فتاته العذراء.(١٠)

ولعلنا فى هذا العرض ــ السريع ــ نكون قد استطعنا أن نوضح كيف تطورت الفروسية الغربية على مر الأيام من فروسية

عسكرية نشأت فى ظل العهد الاقطاعى، وتعتمد على القـــوة وحدهـــا، وليس فيها من سمو الروح ودماثة الخلق شيئاً. أو بالأحرى فروســـية تأخذ بالجانب المادى فقط دون أن تهتم بالجانب المعنوى.

ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة، مملؤة بالتعصب الدينى ليس فيها شئ من سماحة العقل واتساع افقه. إذ أن الحملات الصليبية كانت بمثابة محاولة ناجحة من الكنيسة للاستحواذ على الجيــوش الاقطاعيــة واستعمالها فى اغراضها. وتكشف وثائق القرن الحادى عشر فى الغرب عن زيادة كبيرة فى ادعية النصر، وتقع فى القـــرن نفســـه علـــى أول سجلات لمباركة السيف. وشيئاً فشيئاً اصبح منتظراً مـــن الفـــارس أن يعيش بمقتضى معايير الكنيسة الدينية.(١١)

وبعد انتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية حديثة فيها كثير من صفات الانسانية ومثلها العليا، وان جعلت أهم خصائصها : الحـــب واحترام المرأة والرغبة فى المغامرات.

أثر العرب فى الفروسية الغربية

لا نستطيع أن نشكك فى أن الفروسية الغربية نبتت فى أوروبا ولا نغالى مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحما ودما. فذلك أمر يخالف الواقع. وهذا إذا قصدنا بالفروسية ذلك النظام العسكرى القائم على القوة ــ المادية ــ الحربية وحدها، والذى يتطلب تدريبات شاقة على فنون القتال، واحتمال الصعاب لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم ــ منذ فجر التاريخ ــ التى تلتحم مع سواها فى ميادين القتال، إما مغيرة تتطلب الغزو والسيطرة، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والحياة الكريمة.

وإذا سلمنا ــ جدلا ــ بأن أصل الفروسية الغربية ــ العسكرية ــ راجعا إلى ما تتطلبه ظروف الدول الأوروبية بدأ بالعهد الإقطاعي، وانهم على مر الأيام وضعوا لها نظاما خاصا وطقوسا معينة لتميز الفرسان عمن سواهم، وهنا يحق لنا أن نتساءل من الذى وضع للفروسية الغربية كل تلك التقاليد السامية؟ من الذى وضع المثل العليا للفروسية من التمسك بالكلمة، والوفاء بالعهد، والاخلاص، والطاعة وحماية الضعيف... إلى غير ذلك من الخصال؟

وهنا يمكن لنا أن نقرر أن الفروسية الغربية قد افادت من التقاليد العريقة للفتوة العربية وأن ذلك أمرا لا شك فيه ولا جدال ،وقد اجمع على ذلك نفر من خيرة الباحثين الأوروبين.

إذ يقول السير باسيل ليدل هارت فى كتابه "لماذا لا نتعلم من التاريخ": والحقيقة هى ان الحرب قد تطورت تدريجيا واكتسبت بعدا

إذا كان مفهوم الفرسان يعني : جنود مدربين على القتال على ظهور الخيل فإن هذا التنظيم عرفه قدماء المصرين كما عرفه الاشوريون والفرس (قبل الميلاد).

انسانياً ازداد مع مرور الوقت وانقضاء الزمن... وادت اخلاقيات وقوانين الفروسية فى العصور الوسطى دوراً بارزاً فى هذا التطور.
ويعود الفضل الأكبر فى نشوء هذه الظاهرة إلى أصل عربى، ومصدر عربى. وينبغى أن نعترف أن العرب كانوا أسرع واسبق من الأوروبين فى ارساء الحرب على القيم الاخلاقية والمبادئ الانسانية، وعنهم نقلناها، ومنهم تعلمناها، وبهم عرفناها".(١٢)

وما اشبه هذه العبارة فى عدلها وانصفاها، بالعبارة المأثورة التى قالها المفكر الفرنسي "جوستاف لوبون" لم ير التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب(١٣)

وفى هذا الصدد ـ أيضاً ـ يقول كافين رايلى : "وبنهاية القرن الحادى عشر (الميلادى) كان المجتمع الاسلامى قد اصبح اشد استقراراً وتحضراً من أوروبا. واخرج فلاسفة ورياضين وفلكين واطباء وفنانين بنفس الحماس الذى كانت أوروبا تخرج به الجنود. ونقل خيالة الصحراء إلى اسبانيا تقنية زراعية جعلت الأرض تزدهر على نحو لم نر مثله من قبل. واصبح نسل الخيالة اساتذة طب فى أولى كليات الطب فى أوروبا. وعلم فلاسفتهم الغرب افلاطون وارسطو وعلم تجارهم وبحارتهم الاوروبين الرياضة ومسك الدفاتر والسفر بالبحر... بالاختصار نجد أن الحضارة الاسلامية التى دمرها الصليبيون فى بيت المقدس كانت أرقى واجنح للسلم من غزاتها".(١٤)

ويستطرد كافين رايلى قائلاً : ..."ولا شك أن الفرنجة المسيحين الذين حكموا القدس، ادركوا أن المسلمين أشد منهم تسامحا بكثر. لقد كانوا يعرفون أن المسيحين قد شغلوا مناصب عالية فى بلاطات

المسلمين فى الشرق الأوسط ووجدوا مسيحين سوريين يعملون اطباء وعلماء عند الاطباء المسلمين ورددوا الحكايات عن كرم المسلمين حتى فى المعركة".(١٥)

من هذا المنطلق نرى أن تأثير العرب فى أوروبا جاء إما عن طريق الأندلس أو طريق الحملات الصليبية. ويبدو ان تقاليد الفروسية الغربية مأخذوة عن عرب الاندلس لطول احتكاكهم. إذ سيطر العرب على الاندلس قرابة ثمانية قرون ، لم تخمد فيها نار الحرب، وقد تألب على العرب أمم شتى من أوروبا كلها، شهدوا صدق بلائهم فى الحرب وكرم قلوبهم وحسن معاملتهم، ووفائهم بعهودهم... حتى صارت هذه الصفات الكريمة والخصال الحميدة أمثلة عليا يحتذ بها فرسان الغرب ويتغنون بها.

أ.أثر عرب الأندلس

كل من يدرس تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط يسلم بأن الاندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين حضارة إسلامية عربية من جانب وحضارة مسيحية لاتينية أوروبية من جانب آخر.

ويسلمون أن هذا اللقاء كانت له أثاره التى يمكن رصدها فى حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر، وفى حياة أوروبا الغربية فى آخر العصور الوسطى وفى عصر النهضة.

وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبا وأبحاثا عديدة لعل أشهرها ـ لقرب العد به ـ ما كتبه الباحث

تم فتح الأندلس حوالى سنة ٧١٠م وانتهى حكمهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م

الاسبانى (Americo Casteo) فى هذا السبيل وكذلك كتب الباحثون الأوربيون عن تأثير الحضارة الاسلامية فى الغرب الأوروبى وسجلوا ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات غربية، وما دخل عن طريق اسبانيا العربية (الأندلس) إلى ذلك الغرب من أُثار فى فروع العلم المختلفة وفى نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية.(١٦)

مما سبق يتضح لنا أن الحضارة الاسلامية كانت مزدهرة ومتقدمة فى العصور الوسطى، كما أن هذه الحضارة قد اسهمت بدور فعال فى نهضة أوروبا التى كانت متأخرة فى ذلك الوقت.

ذلك ما يحدثنا عنه تاريخ العصور الوسطى الذى تميز باتحاف الشرق للغرب بثرواته العلمية التى ظلت تتدفق على أوروبا، وخاصة عن طريق الأندلس حتى القرن الثالث عشر الميلادى. ولم يقتصر الأمر على فروع العلم المختلفة، وانما امتد هذا الأثر ليشمل نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية.

وقبل أن نعرض لأثر عرب الاندلس على الفروسية الغربية، تجدر الإشارة إلى حالة الشعب فى شمال افريقيا وحالته فى اسبانيا.

فقد كانت منطقة شمال أفريقيا ــ بعد الفتح الإسلامى ــ تنعم بعدل المسلمين العرب وتسامهحم، بينما كانت إسبانيا تئن من ظلم القوط وعسفهم إذ كان الأشراف والأثرياء معفيين من الضرائب الفادحة التى كان يقوم بها الطبقة الوسطى وحدها حتى صارت إلى الخراب والدمار فقضت على النشاط الصناعى وخلت البلاد من الصناعات ووقفت حركة التجارة.

وقد كانت البلاد منقسمة إلى ضياع واسعة يقيم فيـــها ملاكــها القصور الفخمة، يصرفون فيها أوقاتهم في اللهو والمجــون والملــذات الدنيئة. بينما يقوم لهم بالعمل في ضياعهم الأرقاء والأجراء الذين كانوا يسامون سوء العذاب وكانوا في الدرك الأسفل من الذل والهوان وفساد الأحوال.(١٧)

وهكذا يتبين لنا كيف كان الأهالي البائسون والأرقاء المرهقــون ينتظرون بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي يتخلصون فيه من نقمة الحكــام الفاسدين وقد أتى ذلك اليوم بعد أن لجأ يوليان إلى موسى بـــن نصــير وطلب إليه أن يخلص اسبانيا من الظلم الذي تعيش فيه.*

وبعد ان تم فتح الأندلس عمل الحكام المسلمين على نشر العدل بين الطبقات المختلفة غير مفرقين بين الاجناس والعقائد.

وذلك راجع إلى ما يتحلون به من خصال حميدة وصفات رشيدة كالشجاعة والشهامة وعزة النفس، والعفو عند المقدرة، وإكرام الضيف، ومساعد الضعفاء.... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق، تشـــهد بذلــك وقائع ونوادر كثيرة نذكر منها على سبيل المثـــال مـــا رواه مؤرخـــي الاسبان من أنه في سنة ٨٩٠هــ أراد ملك اشتورية (أذفونس الكبـــير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولي عهده فاستدعى اثنين من مســـلمي قرطبـــة حرصاً على تهذيبه، إذ لم يجد من المسيحين حينئذ من هو كفء لـــهذه المهمة.(١٨)

* الذى دفع يوليان إلى هذا الطلب غضبه من أحد الأشراف لاعتدائه على عرض ابنته فلورنده التي كانت تتربى في البلاط الملكي.

وجدير بالذكر أن الروايات والقصص ذاخرة بأخبار الفرسان فى الغرب، ومن خلالها نستطيع أن نلمس مدى تأثير التقاليد العربية علـــى الفروسية الغربية.

واننا نعلم أن هذه الروايات هى المصدر الوحيد الذى ندرس فيه عادات النبلاء وانها وضعت قوانين وانظمة الحــروب. ومثــلاً عليــا يحتذيها الفرسان، وانها كانت دروسا فى البطولة وحسن المعاملة وطرق الحياة.

وقد أتى فى الفصل العشرين من رواية تربـــان (Turpin) التــى سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقـــى الأمـــر بالفروســـية وتشرب تعاليمها من الأمير العربى الذى كـــان يحكـــم (كولينـــو) فـــى مقاطعة (بروفانس)(١٩)

وقد حرص أصحاب الروايات على إبراز الجوانـــب المعنويـــة والخصال الحميدة فى حياة الفرسان إلى جانب القوى الماديـــة والحيـــاة العسكرية ونجد ذلك فى ترجمة حياة "جان لومينجر" الملقب بالمارشـــال "بوكيكو" اذ كتب أحد المعجبين به منذ عام ١٤٠٩م ترجمته، جمع فيها الحياة العسكرية الشاقة لقائد، ورجل سياسة، إلى جانب صورة للفارس التقى المقتصد.

وتتسم تقوى بوكيكو بمسحة دينية، فإنه يستيقظ مبكـــراً ويظـــل مصلياً متعبداً ثلاث ساعات ومهما يبلغ من انشغاله أو اســـتعجاله فإنـــه يصغى راكعاً إلى قداسين يومياً...ويرتدى السواد يوم الجمعة ويـــروح يحج أيام الآحاد والأعياد سعياً على قدميه ويتحاور فى المسائل المقدسة أو تتلى عليه حياة أحد القديسين أو حكاية عن أحد الأبطـــال الشجعـــان

القدماء من الرومان وغيرهم... وهو يعيش عيش الكفاف والاتزان، ويقل من الكلام وإذا تكلم كان حديثه عنِ الله والقديسين إو عن الفروسية والفضيلة.

وبينما هو فى جنوة ذات يوم ـ بوصفه وصياً على ملك فرنسا ـ رد بأدب بالغ على سيدتين تحييانه. فقال الياور : مولاى من هاتين المرأتين اللتين انحنيت لهما هذا الانحناء الشديد؟ فقال : لا أدرى يا هوجنان!! فقال له عند ذلك : مولاى انهما بغيان. فقال بغيان يا هوجنان لقد أفضل أن اقدم تحياتى لعشر بغايا من أن اضن بالتحية لأمرأة محترمة واحدة.(٢٠)

وإذا كانت هذه الروايات تعد بمثابة مرآة تعكس الحياة لطبقة الفرسان فإنها كذلك توضح لنا القوى المعنوية من تقوى وتقشف ووفاء بالعهد ومساعدة للضعيف... إلى آخر هذه الخصال التى كانت ترسم بها الصورة المثالية للفارس ولكن يبدو أن الصورة المثالية للفارس شئ، والحقيقة الواقعية شئ آخر مخالف للصورة. فبوكيكو الحقيقى لم يشابه هذه الصورة ـ التى رسمت له ـ مطلقاً وهو شئ لم يكن ليتوقعه أحد، فإنه لم يخل من عنف ولا من بخل، وهى عيوب شاعت بين طبقته.(٢١)

ويبدو لنا هذا التناقض بين الصورة والحقيقة للفروسية الغربية مرجعها أن هذه القوى المعنوية، أو بالأحرى هذه الصورة المثالية للفارس، والتى تتشدق بها الروايات الغربية، إنما اضفت على الفارس صفات مكتسبة حاولوا أن يتعلموها ويكتسوبها من العرب.

فى حين أن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقنهم معنى الفتوة، سواء المادية أو المعنوية، إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فمكنها من قلوبهم، وثبتها فى طباعهم.

وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء الفرسان سواء فى الشجاعة أو الكرم، وحسن المعاملة، فى أى مكان حلوا به وفى أى زمان كانوا فيه.

فها هو عبد الرحمن الثالث (ت٩٦١هـ) يكرم عدوه اللدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليستشير الاطباء العرب، فيؤمنه ويقدم له الهدايا ويزيد فى اكرامه حتى يبرأ من مرضه.

فأين هذا مما فعله ملك قشتاله (ببير القاسى) فى سنة ١٣٦٠ م حين دعا أمير غرناطة (أبا سعيد) إلى قصره، فلبى دعوته، ولما رأى بيده خاتما ثمينا راقه، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم.(٢٢)

مثال آخر يدل على النبل والكرم، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بأذى، فقد ذهب الفونس الثامن ملك قشتالة لمحاصرة مدينهة (أوريغا) العربية، فرأى أمير قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحاصرة مددا، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن يشتبك فى قتال خارج المدينة يكون جيشه فيها الأقل من حيث العدد والعدة، أمام عدد كبير قوى العدة. ورأى أن يحتال لابعاد جيش العدو عن المدينة بمهاجمة (طليطلة) حيث كانت تقيم ملكة قشتالة، فلعل زوجها إذا سمع بذلك يترك (أوريغا).

وأخذ القائد العربى فى مهاجمة طليطلة وحصارها، ورأت الملكة ــ وقد عصرها الهم والحزن ــ ألا ملجأ إلا فى الخلق العربى

النبيل تستمد منه النصر، فارسلت إلى القائد العربى تقول : اننى امرأة، وليس من شيم الفرسان قتال النساء فإذا اردت قتالا فعليك بزوجى فإنه ينتظرك على أبواب (أوريغا). فهزت هذه الكلمات مشاعر القائد العربى، وكلها ثقة بشرف وعده، عالمه أنه لن يمسها الأذى ـ فحياها الجيش العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة أوربغا العربية واستولى عليها.(٢٣)

فأى مثل فى الكرم والتحية، وحسن المعاملة، والنخوة، واحترام المرأة ضربه هذا القائد العربى لفرسان الغرب فى عصره، وما بعد عصره.

ب .أثر الحروب الصليبية

لم يكن تأثير عرب المشرق ابان الحروب الصليبية على اخلاق فرسان أوروبا أقل من عرب الأندلس والمغرب. ففى أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين اظهروا تفوقهم الخلقى، وانـــهم أكـــثر مدنيـــة واعلى كعبا فى الحضارة من اعدائهم فبهروهم بـــهذه المثـــل العليـــاء، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم.

ومما يظهر الفرق بين أخلاق الفرســـان الغربييـــن، والفتيـــان المسلمين ما ترويه كتب التاريخ عن تصرفات الفرسان الصليبيين حيـــن تم لهم فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٩م. فبعد أن سقطت المدينة وقعـــت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين ــ رجالا ونساءا وأطفـــال ، فيمـــا عـــدا الحاكم وحرسه اللذين تمكنا من افتداء أنفسهم بالمال، وتم اصطحابـــهم إلى خارج المدينة. وفى معبد سليمان وحوله خاضت الجياد فى الـــدم حتى الركب بل وحتى اللجام، أما بالنسبة ليهود القدس فحين اجتمعـــوا فى معبدهم الرئيسى اضرمت فيهم النيران وحرقوا جميعا أحياء.(٢٤)

وتقدر المصادر الأوروبية أن حوالى عشرة آلاف مسلم ذبحـــوا فى اعقاب الإستيلاء الأول على القدس، أما المصادر الاسلامية فتقـــدر عدد من قتلوا بمائة ألف قتيل.(٢٥)

وأيا كان العدد، فقد تمكن فتيان المسلمين من استعادة القدس سنة ١١٨٧م بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبى. وشتان بيـــن مـــا فعلـــه الصليبيون فى عام ١٠٩٩م وبين ما فعله صلاح الدين بعد ذلك التاريخ بثمانية وثمانين عاما إذ سمح للصليبيين بالخروج ــ من القدس ــ بعـــد دفع عشرة دينارات للرجل وخمسة للمرأة ودينار للطفل، واعطيت لـــهم

مهلة قدرها أربعون يوما للسداد ومن احضر قطيعته بنفسه نجا وإلا وقع اسيرا. كما أنه سمح لأى أسيرمسيحى بالبقاء فى المدينة بشـــرط دفـــع الجزية.(٢٦)

وجدير بالذكر أن الصليبين بعد خروجهم من القدس أنقسموا إلى ثلاث مجموعات : مجموعة الداوية وأخرى الاسبتارية، وثالثة باليـــان دى ايلين وقد أمر صلاح الدين أن يكونوا فى حراسة المســلمين حتـــى اوصلوهم إلى صور، لكى لا يتعرضوا لـــهجمات اللصـــوص وقطـــاع الطرق الذين يكمنون فى هذا الطريق.(٢٧)

ويظهر أن اخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليـــه مـــن بطولة فائقة وشجاعة نادرة وسماحة لاحد لها مع الأعداء قبل الاصدقاء، هذه الاخلاق التى تعبر تعبيرا صادقا عن الفتوة العربية بأدق معانيها قد احدثت فى اذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتـــى أن نفرا من الفرسان المسيحين قد بلغ من قوة اعجابهم به، وانجذابهم إليـــه ان هجروا دينهم المسيحى وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.(٢٨)

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين، وقد كان نبيلا فى كل تصرفاته مع اعدائه، فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا يصاب فى المعركة أمام صلاح الدين، فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه، ولم يزل يعنى به حتى شفى من اصابته. وظل صـــلاح الديـــن يرسل له ما يحتاجه من الثلج لتبريد اشربته، والفاكهة وخاصة الكمثرى والخوخ حيث كان ريتشـــارد يفضلـــهما عـــن غيرهمـــا مـــن أنـــواع الفاكهة.(٢٩)

وها هو نور الدين يضرب مثلا آخر فى النبل والشجاعة الفائقة، ففى سنة ١١٦٣م حين مات (بودوا) لم يشأ أن يستغل وفاته فى مهاجمة عسقلان،وقال : أنه عمل غير انسانى أن تزعج قوما محزونيـــن علـــى أميرهم ولن يشرف مجدى الحربى أن اهجم على قوم غـــير مســـتعدين للدفاع.(٣٠)

وقد أشاد كثير من مؤرخى الغرب بهذه الخصال الحميدة التـــى تحلى بها فتيان المسلمين فحكى (أوليفروس المدرسى) عـــن الســـلطان الملك الكامل الذى هزم جيشا من جيوش الصليبين ثم اعطـــى النـــاجين منهم الطعام.

اشاد أوليفروس بهذا الموقف قائلا : من يمكن أن يشك فـــى أن مثل هذا العمل الطيب والصداقة والاريحية من عند الله؟

أن الرجال الذين قتلنا أباءهم وأبناءهم وبناتهم واخوتهم واخواتهم وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على اراضيهم، والذين ســـقناهم عرايا من بيوتهم اعطونا من طعامهم وابقوا على حياتنـــا عندمـــا كنـــا نتضور جوعا، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت رحمتهم.(٣١)

وهناك بعض المسيحين ـــ مثل أرنولد اف لوبيك ـــ ادركوا أن الفكرة الاسلامية عن الاخوة أكثر تسامحا من النظرة المســـيحية إلـــى اليهود والمسلمين بوصفهم اعداء المسيح. وقال ارنولد الكلمات التاليـــة على لسان أحد المسلمين : "فلئن اختلفت عقائدنا فإن خالقنا ةاحد، وأبانا واحد، يجب أن نتآخى، لا بسبب عقيدتنا ولكن لأننا كلنا بشر، فلنتذكـــر إذن أبانا المشترك ولنطعم اخوتنا".(٣٢)

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية* حادثة على جانب عظيم من الأهمية إذ توضح هذه الحادثة البون الشاسع بين اخلاق الفتيان المسلمين وما تحلت به من رحمة ووفاء، وشفقة وعطف على الضعفاء والمحتاجيين.

وهذه الحادثة رواها (أودو الدويلى) أحد رهبان القديس دينيس (Denis) وكان فى صحبة لويس السابع ـ خلال هذه الحرب ـ وكتب فى وصفها ما نصه :

بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برا عن طريق أسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة منكرة على ايدى الاتراك المسلمين فى ممرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨م، ولم يبلغوا مدينة (اتاليا) الساحلية ألا بشق الأنفس، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التى كان يفرضها عليهم تجار الاغريق فى الابحار إلى انطاكية.

وتخلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق الذين اخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس، وان يعتنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون الحاق بزملائهم، بيد أن الجيش الصليبى لم يكد يغادر المكان، حتى وشى الاغريق بهؤلاء الحجاج العزل إلى الاتراك، واخذوا يرقبون فى صمت ما يعانيه هؤلاء التعسين من المجاعة والمرض، والجراح الدامية، ولما حاولت جماعة من

* الحرب الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩م) بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث امبراطور المانيا، وقد وجهوا حملتهم هذه على دمشق، فلم ينجحوا فى الاستيلاء عليها وانتهت بالفشل التام، وتمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على دمشق.

الحجاج أن تلوذ بالفرار حين شاهدوا الاتراك قادمين هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصاراتهم، ولكنهم رأوهم فى حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر العطف، فكفوا عن هجومهم، وطفقوا يواسون المرضى ويغيثون الفقير، ويطعمون الجائع الذى اشرف على الهلاك، وبذلوا لهم جميعا العطايا فى كرم وسخاء.

فكان ألبون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج على ايدى المسلمين وبين ماعانوه من قسوة اخوانهم فى المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة واذاقوهم العذاب ألوانا، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى ان كثيرا من هؤلاء التعسين دخلوا فى دين منقذيهم بمحض ارادتهم. لقد جفوا اخوانهم فى الدين الذين كانوا قساه عليهم، ووجدوا الأمان بين احضان المسلمين الذين كانوا رحماء بهم.(٣٣)

وإذا لم يكن صلاح الدين عربيا، وإذا لم يكن الاتراك عربا فإنهم جميعا مسلمون قد اهتدوا بهدى هذا الدين الحنيف واتت واخلاقهم فى معاملة الأعداء خاصة إذا ما كانوا من المرضى أو الشيوخ والمحتاجين والضعفاء تنفيذا لتعاليم كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى أتى لكى يتمم مكارم الاخلاق.

ومما يثير الدهشة أن يكون هذا مسلك فتيان المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه فى موقعة عكا سنة ١١٩١م، على الرغم من المعاهدة التى نص فيها على منحهم الحرية والحياة.(٣٤)

ويخيل إلينا أن هذه الأخلاق الغربية التى اتسمت بالغدر والخيانة لم تتهذب كثيرا إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من قسوة وعنف وخيانة... واصدق مثال على ذلك ما فعلوه بعد سقوط دمياط سنة(١٢١٩ / ٦١٦هـ) ، فعندما دخلت القوات الصليبية المدينة عاثوا فسادا وانتشرت السرقات،وكعادتهم هاجموا النساء والأهالى فى المدينة على الرغم من استسلامها لهم بل وحولوا مسجدها إلى كنيسة لاتينية.(٣٥)

اين تلك الاخلاق التى تسول لصاحبها قتل الأسرى الضعفاء ومهاجمة النساء والأطفال الذين لا يملكون حولا ولا قوة، هذه الاخلاق التى اتسمت بنقض العهد والغدر، والخيانة... اين تلك الاخلاق من الاخلاق النبيلة والمثل العليا التى تعبر عن الفتوة الكاملة والتى يظهرها المسلمون؟

وقد عبر المقريزى عن هذه الأخلاق النبيلة، حينما يصف معاملة سلاطين المماليك لأسرى الصليبيين والمغول قائلا : ... "وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها حصيت الغنائم والأسرى وكل من كان أمير يستولى على غنيمته عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تئول إلى السلطان، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئا منها إلا بإذنه، أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان، الذى كان يأخذ منهم ما يشاء لنفسه، ويأمر بتوزيع ما يبقى من النساء والغلمان على الأمراء أما الرجال، فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشئ إلا بعد معرفة اقدارهم ومراتبهم، ومكانتهم بين ذويهم، فمن كان منهم ذا

مقام خاص طلبت منه الفدية واخلى سبيله،أما من كان منهم من العامـــة ولا ينتظر منه فدية فكان يرسل إلى امكنة خاصة بالأسرى.(٣٦)

والآن بعد هذه المقارنه بين اخلاق الفتيان المسلمين والفرســـان الغربيين نجد سؤالا يطرح نفسه، هل تعلم الفرســـان الصليبيــن مــن احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال كيف يهذبون مـــن طباعهم الحربية الجافة وكيف يكونوا أوفياء بالوعد والعهود.؟

حقيقة الأمر أن الشواهد التاريخية ـ التى بين ايدينا ـ تخـــالف ذلك وخاصة بعد أن تعرفنا على موقف الجيوش الصليبية من المسلمين عند فتح بين المقدس سنة ١٠٩٩م، وموقف ريتشارد قلب الأســد مــن أسرى عكا سنة ١١٩١ م ووجدنا أن موقف لويس التاســـع وجيوشــه الصلــيبية بعد سقوط دمياط فى ايديهم ســـنة ١٢١٩م، لــم يتغــير أو يختلف فى كثير أو قليل عن موقف سابقيه فهذه المواقف كلها مع مـــا فيها من غدر وخيانه ومذابح للأسرى والأهالى من الشيـــوخ والنســاء والاطفال، الذين لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قـــوة تجعلنـــا نجــزم أن فرسان الصليبيين لم يتعلموا شيئا من احتكاكهم بفتيان المسلمين ـ العرب ـ إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من خشونة وقسوة. ولم تعرف شيئا عن العفو والرحمـــة أو حمايـــة الضعيـف ومســاعدة المحتاج... أو أى خصلة من تلك الخصال الحميدة التى وجدناها عنـــد فتيان المسلمين.

لقد ظل الفرسان الصليبين على ما هم عليه من خشونة وقســوة وعنف وعدم إلتزام بالوعد أو وفاء بالعهد، منـــذ أن بـــدأت الحــروب الصليبية وحتى نهايتها.

ويحدثنا التاريخ فى هذا الصدد ــ نقض الوعد وخيانة العـــهد ــ عن مراسلات متبادلة بين السلطان الظاهر بيـــبرس، ومقـــدم فرســـان الاسبتارية لتحديد مسئولية خرق لهدنة عقدت بينهم ســـنة ٦٦١هـــــ / ١٢٦٣م. إذ حاول فرسان الاسبتارية تحميل المسلمين مسئولية خـــرق الهدنة فكتب السلطان بيبرس إليهم : ان شرط الهدنة التى كانت بيننا لا تجدد بناء وقد شرع بين الاسبتارية فى بناء أسواء... وهذا من بعض ما ينقض العهد...(٣٧)

فرد الاسبتارية على السلطان : أنا لم نبـــن هـــذه الأســـوار إلا للحماية من الصعاليك ومن التتار...

فكان جواب السلطان بيبرس : أمـــا تجديـــد الأســـوار لحفـــظ المسلمين فالبلاد لا تحفظ بالأسوار، ولا تحفظ الرعية بالخنادق وانمـــا تحفظ بأحد أمرين، أما بالسيوف والعزائم، واما بإحسان الجيرة، وكـــف الأذى... وأما التتار، وما جعلنا حصوننا ولا خيولنـــا، ولا خنادقنـــا إلا سيوفنا ولا أسوارنا إلا رجالنا.(٣٨)

لقد حدد السلطان بيبرس فى هذا الرد الأمور التى تحفـــظ بـــها البلاد وتمثلت هذه الأمور فى الفتوة بشقيها المادى والمعنوى.

فتحفظ البلاد بالفتوة المادية عن طريق السلاح والعزيمة، إلـــى جانب الفتوة المعنوية المتمثلة فى حسن الجوار وكف الأذى.

حقا لقد اظهرت لنا تلك المعارك الدامية التى دارت قديما بيـــن الغرب المتعصب والاسلام السمح، الفرق الواضح والبون الشاسع بيـــن اخلاق الفتيان المسلمين، واخلاق الفرسان الغربيين.

ولقد صدق (ستانلى لين بول) حينما قال : "لقد اجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية أن فضائل المدنية : العظمة والسماحة، والعفـو، والفروسية الحقيقية والتهذيب الدمث، كانت كلها فـى جـانب العـرب المسلمين أبان هذا القتال المرير".(٣٩)

الفروسية الغربية فى الميزان

من كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يلى :

١ ــ فروسية عسكرية،نشأت فى ظل العهد الاقطاعى، إذ أدت الحروب المستمرة بين أمراء الاقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى أو بالأحرى فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها، وليس فيها من سمو الروح ودماثة الخلق، والخصال الكريمة شيئا.

٢ ــ قدر لنظام الفروسية، فى العصور الوسطى ــ أيام ازدهاره الأول ــ أن يمتزج بالرهبانية. وتولدت عن هذا الاتحاد، الهيئات العسكرية الدينية لفرسان الهيكل (المعبد) أو الداوية، وفرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية، والفرسان التيوتون. وكان لهذه الانظمة دور بارز إبان الحروب الصليبية.

٣ ــ بعد إنتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية أخرى تتشدق بالصفات الإنسانية والمثل العليا، وان جعلت أهم خصائصها الحب، واحترام المرأة والرغبة فى المغامرات، حتى اصبحت الفروسية فى هذه الحقبة مرادفة لأداب المجاملة.

والسؤال الآن : إذا كانت الفروسية الغربية قد برعت بشكل أو بآخر فى الجانب المادى للفتوة، فهل استطاعت أن تتحلى بالجانب المعنوى، الذى يتمثل فى السماحة، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالعهد، والمحافظة والإلتزام بالوعد وحماية الضعيف... خاصة بعد احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال؟

حقيقة الأمر أن فرسان الغرب لم يصلوا إلى مـا وصـل إليـه العرب فى هذا المضمار لأن هذه الصفات كانت طبيعية لـدى العِـرب متأصلة فى نفوسهم، وجرت عليها تقاليدهم وورثوها عن أبائـهم.(٤٠) وحث عليها دينهم الحنيف، فتضاعفت عوامل عدة على تمكينـها فـى قلوبهم وطباعهم فلا يتكلفونها أو يستطيعون الانحراف عنـهما وعلـى العكـس من ذلك الفرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعـهم وطغـى عليهم تعصبهم.

بالإضافة إلى أن هيئات الفروسية الغربية لم تكن تـهدف إلـى ارساء القيم الخلقية، والخصال الحميدة، بقدر ما كـانت تـهدف إلـى المناصب السياسية والمصالح الاقتصادية والاقطاعية، حتى ان هيئـات الفروسية الدينية كانت هى الأخرى تتصارع من أجل هذا الهدف.

ويؤكد على ذلك قول يوهان هويزنجا : "ومنـذ وقـت مبكـر، اتخذت الهيئات الكبرى الأولى للفرسان الرهبان، وهى هيئات : الهيكل (الداوية) والقديس يوحنا (الاسبتارية) والفرسان التيوتون، وهـى التـى تولدت عن التداخل المتبادل بين الفكرات الديرية والاقطاعيـة، طـابع النظم السياسية والاقتصادية الكبرى. فلم يعـد هدفـها وهمـها الأول ممارسة الفروسية إذ قللت اهميتهم السياسية والاقتصادية بشكل أو بآخر من ذلك الهدف، كما قللت من تطلعاتهم الروحية".(٤١)

وعلى الرغم من حرص جميع الجهات والهيئات، المحافظة على بقاء التقاليد الفروسية، والتغنى بالمثل العليا التى تتحلى بـها الفروسـية الغربية ــ فإن الواقع يكذبها على الدوام، ويضطرها أن تتوارى لاجئـة إلى مجالات الأدب والأحاديث. فلم يكن فى المستطاع العمـل علـى

تشجيع المثل الأعلى للحياة البطولية الممتازة (الفروسية) إلا داخل حدود طائفة النبلاء فلم تكن عواطف الفروسية دارجة إلا بين اعضاء الطائفة ــ وحدهم ــ كما أنها لا توسع لتشمل اشخاصا أدنى منزلة.

وكان البلاط البرجندى* المشبع تماما بالتحزب للفروسية، والذى يأبى التسامح إزاء أهون خرق للقواعد فى نزال يبلغ أقصى درجات التطرف بين النبلاء يستمتع تماما بالشراسة الجامعة التى تتجلى فى مبارزة قانونية بين أبناء المدينة وليس فيها قانون للشرف ينبغى رعايته.

وقد حدث أن جرت مبارزة بين اثنين من أهل المدينة ببلدتهما (فالانسيين فى ١٤٥٥) ورغب الدوق العجوز فيليب فى مشاهدة ذلك المشهد النادر مهما كلفه ذلك.

ويصف شاستللان ذلك المشهد قائلا : "ونزل الخصمان إلى الحلبة فدخل أولا جاكوتان بلوفيية، المدعى وتبعه ما هوه. وقد قصى شعر رأسيهما قصيرا، وخيط على كل منهما من الرأس إلى القدم ثوب من جلد الماعز من قطعة واحدة، وقد شحب وجهاهما جدا. وبعد أن قدما التحية إلى الدوق... جلسا ينتظران اشارة البدأ.... ويبدأ ما هوه، وهو رجل قليل الجسم، المنازلة بقذف الرمل بحرف ترسه فى وجه جاكوتان وسرعان ما يسقط على الأرض تحت ضربات جاكوتان القوية... إذ يلقى بنفسه عليه، ويملأ عينيه وفمه بالرمل، ويدخل ابهامه فى حجر عينيه ليحمله على اخلاء أصبع عض عليه ما هوه بأسنانه...

---

* مقاطعة برجنديا، احدى المقاطعات الفرنسية، التى انشأت فيها دولة شبه مستقلة عن المملكة الفرنسية.

* دوق برجنديا، فيليب (الطيب) تولى الحكم فى الفترة من ١٤١٩ إلى ١٤٦٧م

ويلوى جاكوتان ذراعى خصمه... ويقفز على ظهره محاولا كسره.... وعبثا ما يصرخ ما هوه طالبا الرحمة ويطلب الاعتراف.

فيصيح عاليا : مولاى دوق برجنديا، أنى أحسنت البـــلاء فـــى خدمتك فأنقذ حياتى... إلا أن الدوق يأمر أن يسحب الرجل ــ المحتضر إلى خارج الحلبة حيث تولى الجلاد شنقه".(٤٢)

لقد أثرنا سرد هذه الواقعة ــ كاملة ــ لأنها أتت من كاتب لـــه ميول فروسية بحكم ولاءه إلى البلاط البرجندى المتشـــدق بالفروســية ومثلها العليا فوجدنا أن روايته للمبارزة خالية من أى عبرة خلقيـــة أو مغزى للحادثة وما هى إلا وصف دقيق لغرائز القسوة والعنف.

كما أن هذه القصة أوضحت ــ لنا ــ أن معانى الرحمة والعفو والتسامح ما هى إلا كلمات لا مدلول لها ولا معنى فى فروسية البـــلاط البرجندى.

إذ لم يبد الدق ــ الملقب بالطيب ــ أدنى شفقة أو رحمة علـــى الرجل المحتضر الذى يطلب منه السماح والعفو، مذكرا أيـــاه بطـــول خدمته له وحسن بلاءه فى الحروب، إلا أن هذه الأمور جميعها لم تشفع للرجل وسحب من الحلبة ليتولى الجلاد شنقه كما تسحب الشاة للذبح.

ويخيل إلينا أن الفروسية الغربية، وما تتغنى به من مثـــل عليـــا ومبادئ انسانية لم تكن يوما واقعا حقيقيا، إنما هى من نسج خيال الادباء والشعراء إذ كان الجشع والمصالح الذاتية والقسوة والعنف سمات غالبة على الحيـــاة فى العصور الوسطى ــ فى الغـــــرب ــ وكـــانت هـــذه السمات أكبر كثيرا من الفروسية نفسها.

وعلى الرغم من أن كثيرا مـن المؤلفين، وكتـاب العصـور الوسطى ــ وغيرها يستلهمون مؤلفاتهم بتصريحات طنانة عن انتوائهم تمجيد الشجاعة والفضائل الكريمة التى يتحلى بها الفرسـان، وتسـجيل المأثر النبيلة والفتوح وأعمال البطولة ومفاخر الحرب والسلاح... فإنهم إذا ما اقدموا فيما بعد اثناء الكتابة نسوا ذلك المثل الأعلـى والفضـائل الكريمة بدرجات تتفاوت.

ونذكر فى هذا الصدد "فرواسار" وهو نفسـه مؤلـف لملحمـة فروسية سوبر رومانتيكية (أى رومانسية متطرفة) Super - Romantic وهى "مليادور" Meliador فإنه يروى مالا يحص من الخيانات والقساوات، دون أن ينتبه إلى ما حدث من تناقضات بين تصوراتـه ومفاهيمـه العامـة ومحتويات ما سرد.(٤٣)

ولا يفوتنا أن ننهى هذا الجزء من البحث دون أن نشير إلى مـا تتباهى به الفروسية الغربية فى العصور الوسطى، بأنها تميزت بالحب واحترام المرأة إذ تدعى الفروسية الغربية انها اسـتطاعت أن تحـول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة بعيدا عن المادة.

حتى ان البعض يرى أن الحب فى نظـر فرسـان العصـور الوسطى فضيلة، بل منبع كل الفضائل، ولهذا صار جميـع الفرسـان فضلاء، لأنهم يحبون أو يتظاهرون بأنهم يحبون، وصار الحب نظامـا تعليميا، وعرف الحب بأنه أصل كل نشاط، وكل فضيلة خلقية وكـل مجد.(٤٤)

لقد كانت احاديث الحب هى الشغل الشاغل فى حيـاة النبـلاء، حتى ان الإفتاء فى شئون الحب اتخذ حيزا ضخما فى أحاديث القصور مما رفعه إلى مستوى أحد الاشكال الأدبية.

وكان الناس يسلون انفسهم فى بلاط الحكام اثناء تناول الطعـــام بقص الحكايات وتوجيه الاسئلة المتعلقة بشئون الحب، ويطالب الشعراء ـــ بوجه خاص ـــ بالإسهام فى ذلك كله.

وفى هذا الصدد يذكر يوهان هويزنجا : ان جماعة من السيدات والنبلاء اخذوا يطالبون الشاعر (جيـــوم ده مـــاشوه) أن يجيـــب عـــن مجموعة من الاسئلة حول تاريخ الحب ومخاطره منها : أيـــها الســـيد العاشق، أى الأمرين تفضل : أن تقول الناس قاله السوء عن حبيبتك ثم تجدها طيبة قويمة، أم أن تحسن سيرتها على أفواهم ثم ينكشف لك أنها سيئة الطوية؟!

فيجب ما شوه : سيدتى، انى افضل أن تحســـن ســـيرتها علـــى افواههم وان اجدها سيئة الطوية.(٤٥)

وقد لا نصدم أو نندهش إذا ما أتت هذه الاجابـــة علـــى لســـان شاعر، ولكننا نصدم ونندهش إذا كان صاحب هذه الاجابة ـــ ماشوه ـــ راعيا لأحدى الكنائس والمفروض فيه أن تكون أقواله وأفعاله تتفق مع مكانته الدينية والاجتماعية.

إلا أن الحقيقة كانت خلاف ذلك إذ ان ماشوه كان على علاقـــة بفتاة صغيرة، وانتهت هذه العلاقة بأن الفتاة لم ترفض له شيئا طلبـــه، فهى تمنحه شرفها باسم الحب ولا شئ غير الحب.

من هذا يتضح لنا أن الحديث عن الحب العذرى، البعيـــد عـــن المادة والحديث عن احترام المرأة لم يكن إلا مسلاه يتسلى بها مجتمـــع راق؛ فلم تستطع الفروسية الغربية يوما ما أن تتمسك بالتقوى والفضيلة وسائر الخصال الحميدة التى كانت سائدة فى فتوة العرب المسلمين.

---

* ذكر ماشوه هذه القصة ـــ تفصيلا ـــ فى كتابه (Voir Dit) وفيه يمزج عنصر الدين والحب مع نوع ساذج من إنعدام الحياء.

فمصدر الفكرة الفروسية انماهو الكبرياء، إذ يكمن مجد الامراء والنبلاء فى كبريائهم وفى قيامهم بالأعمال المحفوفة بعظيم المخاطر وتلتقى جميع القوى الرئيسية فى نقطة صغيرة تسمى الكبرياء.(٤٦)

واخيرا فإننا نرى ان متطلبات الكمال الخلقى كانت ثقيلة الوطأة على الفارس، فإن هذه الفروسية الغربية التى تحظى بأطيب الثناء لم تكن مستطيعة إخفاء ما طلعت عليه من زيف أصيل، مهما كانت وجهة النظر التى ننظر إليها منها.

فإنها كانت مفارقة تاريخية مضحكة، وكانت قطعة من التلفيق المتكلف وجدت فى بلاط الامراء والنبلاء بعد أن فقدت قيمتها فى ميدان الحرب والدين، أوجدها الرواة والشعراء فجاءت القصائد والروايات خالية من أى منفعة إجتماعية أو قيمة أخلاقية بل كل ما فيها كبرياء متغطرس، وغرور باطل، وخطيئة آثمة.

هوامش
الفصل الخامس

(١) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦٠

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦١

(٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١

(٤) د. حسن عبد الوهاب حسن : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ص ٥٨، ٥٩

(٥) المرجع السابق : ص ٥٩، ٦٠

(٦) الموسوعة الثقافية مادة ف ص ٢١٧ كتاب الشعب

(٧) J. Richard, The Latin Kingdom of Jewsalem P.199.

(٨) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر جـ٤ ص ٢٥، ٢٦

(٩) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦٣

(١٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢٥، ١٢٦

(١١) كافين رايلى : الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات القسم الأول ص ١٩٥

(١٢) Sir Basil Liddell Hart. Why Don't we Learn From History? P.P 73 - 74

(١٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦٠٥

(١٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٨، ١٩٩

(١٥) المرجع السابق ص ١٩٩

(١٦) د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلس (ضمن بحـوث فـى تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١١٣

(١٧) على ابراهيم النحراوى وعثمان صالح الدجوى : تاريخ أوروبا والشرق فى القرون الوسطى ص ٦٥.
(١٨) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٢
(١٩) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٣
(٢٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٥، ٧٦
(٢١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٦
(٢٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٨٧
(٢٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٧٥
(٢٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٧، ١٩٨
(٢٥) المرجع السابق : ص ١٩٩
(٢٦) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٦، ٧٧
(٢٧) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٨
(٢٨) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٧٨
(٢٩) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٨١
(٣٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٧٩
(٣١) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٩، ٢٠٠
(٣٢) المرجع السابق ص ٢٠
(٣٣) Arnold - Sir. T.W. The Preaching of Islam - Ch. 3.
(٣٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٢
(٣٥) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ الفرسان التيوتون ص ١٦٨
(٣٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٠١ وما بعدها.
(٣٧) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٥٩

(٣٨) المرجع السابق ص ١٥٩، ١٦١

(٣٩) Stanly Lane - Pool - Saladin andy the Ball of the Kingdom of Jewsalem. P.307.

(٤٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٣، ٢٨٤

(٤١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٨٧، ٨٨

(٤٢) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١، ١٠٢

(٤٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٦٨، ٧٠

(٤٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٦

(٤٥) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢١

(٤٦) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧١



الخاتمة

والآن بعد أن عرضنا للفتوة فى المفهوم الإسلامى، نجد أنه من الضرورى نحدد أهم النتائج التى يمكن أن نصل إليها، فنجد أول ما يقابلنا فى هذا الصدد أن المجتمع العربى قبل الإسلام كان كثيرا ما يشيد بالفتيان ويرفع من شأنهم ويضعهم فى مكان الصدارة والرياسة. إلا أن مفهوم الفتوة فى تلك الأونة كان يختلف باختلاف القبائل، بل لا نغالى إذا قلنا أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف بإختلاف نظرة كل شخص إلى فتوته.

وإذا نحن خطونا خطوة فى التاريخ ، وقاربنا الإسلام وجدنا نوعا من الفتوة الشريفة كان من أهم سماتها إغاثة الملهوف ونجدة المظلوم... ويتضح ذلك فيما عرف "بحلف الفضول" فلما جاء الإسلام وجدنا أن لفظة الفتى التى ذكرت فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وبأكثر من معنى، كما أتت وصفا لبعض أنبياء الله مثل إبراهيم ويوسف – عليهما السلام – كذلك وصف الحق سبحانه وتعالى أهل الكهف بأنهم فتية، وذلك فى قوله تعالى : "نحن نقصى عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" . "سورة الكهف : الآية ١٣"

وهنا نجد أن الحق تبارك وتعالى جعل الإيمان به سبحانه سمة أساسية من سمات الفتوة.

أما عن موقف الإسلام من سمات الفتوة التى عرفت فى المجتمع الجاهلى فنجد أنه جاء منظما لهذه السمات فألغى بعضها ونهى عنها،

وهذب السمات والصفات الحميدة وجعل غايتها مرضاة الله عز وجـــل.
فإذا قلنا ــ مثلا ــ ان الشجاعة فى المجتمع الجاهلى كانت تهدف إلـــى المجد الفردى والقبلى، فجاء الإسلام موجها لها إلى خدمة الأمة جمعاء وإلى الدفاع عن مبدأ شريف ودين كريم، فأصبحت جهادا فـــى ســـبيل إعلاء كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والإلحاد.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن سمات الفتـــوة كمـــا عرفـــها الإسلام إنما هى مكارم الأخلاق، متمثلة فى الإيمان والكـــرم والوفـــاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والعفو، والزهد....

وقد اتضح لنا أن هذه التعاليم السامية قد تجسدت فى شخصيـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجتمعت فيه سمات الفتـــوة بشقيـــها المادية والمعنوية، فاقتدى به الصحابة الذين كـــانوا نمـــاذج فـــذة فـــى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارهم.

ومن خلال التساؤلات التى طرحناها ــ من قبـــل ــ لمعرفـــة سمات الفتوة عند الصوفية، انتهينا إلى أن مصدر الفتوة عندهم انما هو كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله الكريم الـــذى يحـــث علـــى مكـــارم الأخلاق. إضافة إلى ما وجدوه فى حياة الصحابة الذين كـــانت الدنيـــا بزينتها وزخرفها أهون على أحدهم من تراب قدميه.

ومن هذا المنطلق وجدنا أن أخص سمات الفتوة عند الصوفية ما عبر عنه الشيخ الأكبر "محى الدين بن عربى" فى قولـــه :"الفتـــى هـــو الواقف عند مراسم سيده."بالإضافة إلى بعض السمات الأخـــرى التـــى عرفت عن فتيان الصوفية وأهمها : الإيثار، وكف الأذى، والصفح عن الأخوان، والزهد، والصبر، ومحاسبة النفس ومخالفتها وتأديبها...

وإذا كان هناك من يربط بين الفروسية الغربية والفتوة الإسلامية وجدنا أنه من الضرورى أن نقيم دراسة مقارنة بينهما حتى تتجلى الحقيقة، وانتهينا فى هذا الصدد إلى أن الفروسية الغربية وان كانت قد برعت ــ بشكل أو بآخر ــ فى الجانب المادى للفتوة المتمثل فى المعارك وساحات القتال، فانها لم تستطع أن تتحلى بالجانب المعنوى للفتوة من السماحة، والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد، والإلتزام بالوعد، وحماية الضعيف....

يشهد بذلك تاريخ الحروب الصليبية سواء عند فتح بيت المقدس، أو موقف ريتشارد قلب الأسد من أسرى عكا.... فقد ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من خشونة وقسوة وعنف منذ أن بدأت تلك الحروب وحتى نهايتها، ولم تعرف شيئا عن العفو أو الرحمة... أو أى سمة من تلك السمات التى وجدناها عند فتيان المسلمين.

وأخيرا ما أحوجنا فى تلك الآونة من التحلى بسمات الفتوة (المادية والمعنوية) حتى نكون أقوياء فى غير عنف ورحماء فى غير ضعف.



من أهم المراجع العربية

١. ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ـ تحقيق محمد أبـــو الفضـــل طـ. مصر ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤

٢. ابن جبير : الرحلة تحقيق د. حسين نصار القاهرة ١٩٥٥

٣.ابن الجوزى : صفة الصفوة حيدر آباد ١٣٥٥هـ

٤.ابن الجوزى : تلبيس ابليس القاهرة ١٣٤٠هـ

٥.ابن خلدون : المقدمة دار التحرير للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦

٦.ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين، بين إياك نعبد وإيــاك نســتعين دار الحديث. د.ت.

٧.ابن القيم الجوزية : الفروسية دار التراث العربى ـ القاهرة ـ د.ت

٨.ابن عربى : الفتوحات المكية تحقيق د. عثمان يحيى الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ د.ت

٩.ابن عربى : فصوص الحكم تحقيق د. أبو العلا عفيفى دار الكتـــاب العربى بيروت ١٩٨٠

١٠.ابن كثير : البداية والنهاية مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ د.ت

١١.ابن المعمار : الفتوة تحقيق مصطفى جواد وزملائه بغداد ١٩٦٠

١٢.ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف ســـعد مكتبـــة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ د.ت.

١٣.أبو سعيد الخراز : كتاب الصدق تحقيق د. عبد الحليم محمـــود دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥

١٤. ابو طالب المكى : قوت القلوب فى معاملة المحبـــوب ووصــف طريق المريد إلى مقام التوحيد ــ القاهرة ــ ١٩٣٣

١٥. د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتـــوة القـــاهرة ١٩٤٥

١٦. د. أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام دار ــ القاهرة ــ ١٩٦٣

١٧.أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ــ القاهرة ــ د.ت

١٨.أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٦

١٩.د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى دار نهضـــــة مصـــر ــ القاهرة ١٩٧٩

٢٠. د. توفيق الطويل : فى تراثنا العربى والإسلامى عـــالم الفكـــر ــ الكويت العدد٨٧

٢١. تيشنر فرانز : الفتوة والخليفة الناصر (فصل من كتاب : المنتقـــى من دراسات المستشرقين) جمع وترجمة وتعليق د. صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٥٥

٢٢.الجرجانى : التعريفات البابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٨

٢٣.الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق البابى الحلبـــــى ــ القـــاهرة ١٩٥٦

٢٤.جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عـــادل زعيـــتر البـــابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٦٩

٢٥.د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضى المقدسة. دار المعرفة الجامعية ـ اسكندرية ١٩٨٩

٢٦. د. حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها دار الكتب الجامعية ـ اسكندرية ١٩٧٥

٢٧.د. حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦

٢٨.الحلاج : الطواسين تحقيق ما سينيون باريس ١٩١٣

٢٩.خالد محمد خالد : رجال حول الرسول بيروت ١٩٧٤

٣٠.دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة د. عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٩٥٤.

٣١.د. زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ط. أولى القاهرة ١٩٣٨

٣٢.السلمى : طبقات الصوفية ـ تحقيق نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٨٦

٣٣.سيف بن عمر الضبى الأسدى : الفتنة ووقعة الجمل ـ دار النفائس. بيروت ١٩٧٧

٣٤.الشعرانى : الطبقات الكبرى دار الفكر العربى القاهرة بدون تاريخ

٣٥.شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ط ـ القاهرة ـ بدون تاريخ

٣٦.د.طه حسين : الفتنة الكبرى دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦

٣٧.د.طه حسين : على وبنوه دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦

٣٨.د.طه حسن : الشيخان دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨

٣٩.الطوسى : اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ـ القاهرة ١٩٦٠.
٤٠.عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ط ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٨
٤١.د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ـ الهيئة المصرية العامة الكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٧
٤٢.د. عبد الستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصر العباسى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٤.
٤٣.د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلس (ضمن بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية) ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ اسكندرية ١٩٨٣
٤٤.د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ـ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٨
٤٥.عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٦
٤٦.د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ اسكندرية ١٩٨٦.
٤٧.الغزالى : احياء علوم الدين المكتبة التجارية الكبرى ـ بدون تاريخ.
٤٨.القاشانى : اصطلاحات الصوفية ـ تحقيق د. محمد كمال ابراهيم جعفر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨١
٤٩.القشيرى : الرسالة البابى الحلبى ـ القاهرة ١٩٥٩

٥٠.القشيرى : لطائف الإشارات دار الكتاب العربى ــ القاهرة بــدون تاريخ.

٥١.كافين رايلى : الغرب والعالم ــ ترجمة د.عبــد الوهــاب محمــد المسيرى. د.هدى عبد السميع حجازى ــ عــالم المعرفــة ــ الكويــت العدد ٩٠

٥٢.د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصــوف والتشيــع ــ دار الأندلس بيروت ١٩٨٢

٥٣.المحاسبى : الرعاية لحقوق الله تحقيق د. عبد الحليم محمــود دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٤

٥٤.المحاسبى : المسائل فى الزهد ــ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ــ مكتبة التراث الإسلامى ــ القاهرة ١٩٨٦

٥٥.د. محمد أحمد عبد المولى : العيارون والشطــار، البغــاددة فــى التاريخ العباسى مؤسسة شباب الجامعة ــ اسكندرية ١٩٨٧

٥٦. د. محمد جلال أبو الفتوح شــرف : دراســات فــى التصــوف الإسلامى ــ دار الفكر الجامعى ــ اسكندرية ١٩٨٦

٥٧.د. محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعياريين فــى الــتراث العربى عالم المعرفة ــ الكويت العدد ٤٥

٥٨.د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإســلام ــ دار الجامعات المصرية ــ اسكندرية ١٩٧٣

٥٩.د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى ــ القاهرة ١٩٨٣

٦٠. مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ــ ــ القاهرة ١٩٤٤

٦١.نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ــ ترجمة د. أبو العلا عفيفى القاهرة ــ ١٩٤٧

٦٢.الهجويرى : كشف المحجوب ــ دراسة وترجمة وتعليق د. اسعاد عبد الهادى قنديل ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة ١٩٧٤.

٦٣.يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ــ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٧٢

٦٤. يوهان هويزنجا أعلام وأفكار ــ نظرات فى التاريخ الثقافى ــ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٧٢

المراجع الأجنبية

1- Arnold - sir - T.W: The Preaching of Islam.

2 - Sir. Basi Liddell Hart : why don't we Learn From History? George Allen and Unwin. London. 1971.

3 - Stanley Lane. Poool: Saladin and the Fall of the Kingdome of Jerusalem.

4 - J.Richard : The latin kingdome of Jerusalem Trans from french by J.Shirly 2 vols. Amstrdam, 1979.



الفهرس



